# خَالِدات مِن التاريخ

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب: خَالِدات مِن التاريخ
التأليف: مصطفى زهران
موضوع الكتاب: اسلامي
عدد الصفحات: 118 صفحة
عدد الملازم: 7.375 ملازم
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2914 / 2024
الترقيم الدولي: 978 _ 977 _ 8795 _ 7 _ 1

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 _ 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

# خَالِدات مِن التاريخ

مصطفى زهران

# مُقدمة

لقد كانت نماذج الرجال كثيرة جِدًّا في تاريخنا؛ فقد أخذ عظماء الرجال مساحات واسعة من صفحاتِ التاريخ، على الرغم مِن أنَّ نماذج النساء لا تقل أهمية من حيثُ الكيف في تاريخنا، فإنَّ المرأة المسلمة في أثناء فترات التاريخ الإسلامي كلها قديمًا، وحديثًا لم تكن أَقَلَّ ثباتًا، ولا أقلَّ عملًا؛ لنُصرة الدين والأوطان من الرجال، ولا أقلَّ تضحيةً، ولا بذلًا في سبيل عقيدتها؛ فقد ضربَت أروع الأمثلة في هذا المجال، فضحَّت من أجل دين ربها بكل ما تملك، غير مُبالية بذلك، لا يهمُّها ما يُصيبها مِن ظلمٍ وتعذيبٍ وموت في سبيل عقيدتها.

أمَّا بعد،

فهذا الكتاب نُبذة مختصرة، نتعايش بين صفحاته مع باقةٍ عَطِرة من نساءٍ خلَّدهنَّ التاريخ، إنها رحلةٌ مُباركة، تحمل بين طياتها نفحاتٍ ربانية؛ لهؤلاء الكريمات، اللواتي عَطَّرْنَ كتب السير وتراجمها بسيرتهن الميمونة المُباركة، ولقد كانت كل امرأة بمثابةِ زهرة يانعة، نبتَت في حقل الإسلام، وسُقيت بماء الوحي، ففحاها عطرها وأريجها؛ ليملأ الكون كله بعطر الإيمان العظيم.

لقد كانت الصالحات الكريمات ﷺ المثل الأعلى، والقدوة الصالحة للمؤمنين والمؤمنات جميعًا؛ لأنهنَّ تلقَين العلم من منابعه الأصلية، وصنعهنَّ اللهُ على عينه، فأطعنَه في كل شيء، ووقفنَ عند حدودِهنَّ في السراء والضراء، والشدة والرخاء، ولم تزدهنَّ الدنيا من اللهِ إلا قُربًا، فلقد كان لَهُنَّ في نصرة الإسلام بَاعٌ طويلٌ، ولقد ذكرت في هذا الكتاب بعضَهُنَّ؛ لِيَكُنَّ مشاعلًا على طريق الهدى وكفاحه.

فلقد اختارهنَّ -اللهُ تعالى- ليكُنَّ قدوة للنساء، فكُنَّ أكثرَ هذه الأمة هُدًى، وتُقًى، وعلمًا، وأقلهنَّ تكلُّفًا، فصبرنَ على الحوادث العِظام، والخُطوب الجِسام، وبِعنَ

أنفسهنَّ لله، وآثرنَ الآخرة على الدنيا، فما كللنَ ولا مللنَ، ولا ضللنَ، وما وهَنَّ لِمَا أصابهُنَّ في سبيل الله، وما ضعفنَ وما استكنَّ؛ بل صبرنَ، وصابرنَ، وناضلنَ، ونصرنَ اللهَ ورسولَه، وَجُدنَ بأرواحِهنَّ لله.

ومَن يقرأ هذا الكتاب سيعلم أنَّ المرأة كانت مع الرجل دائمًا، جنبًا إلى جنبٍ في معاركه السياسية، والعسكرية، والدعوية، وخُطواته كلها في عمارة الأرض، وإصلاح المجتمع، فلم تكُن المرأة المسلمة في تاريخ الإسلام يومًا أقلَّ ثباتًا في دينها من الرجال، ولا أقلَ تضحيةً وبذلًا في سبيل عقيدتها، فقد ضربَت أروع الأمثلة في هذا المجال، فضحَّت؛ من أجل إسلامها بما تملك، غير مُبالية بمَا يصيبها من ظلمٍ، وتعذيبٍ، وموتٍ في سبيل الله.

فهيَّا بنا إلى هذه الواحة اليانِعة؛ لنعيش في رحاب الصادقات، ولنستنشق عبير الصدق، عسى الله أن يرزقنا الصدق والإخلاص في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّض أَمْرِي إِلَى اَللَّه إِنَّ اَللَّه بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ).

مُصطفى نَصر زَهران

# الصديقةُ البَتُول

حديثنا في هذه الورقات عن امرأة كمَّلها الله بدينها، وجمَّلها بمكارمِ الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، وبرَّأها من الشبهات، ولاحَت كل مَن لاحاها وعاداها، وظنَّ بها الظنون، وجعلها وابنها آيةً للعالمين، وقَصَّ علينا خبرهَا في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه العزيز، وأُنزِلَت فيها سورةٌ سُمِّيَت باسمها، وضرَبها مثلًا للمؤمنين والمؤمنات في العفة، والنزاهة، والعبادة، والتَّبتُّل إليه -جلَّ شأنه- إنَّها صديقةُ مَريم بنت عِمران أُمِّ عيسى عليهما السلام.

ومَريم ابنة عِمران رضي الله عنها هي الإنسانة التي لم يَخلق اللهُ إنسانة مثلها من لدن حواء إلى قيام الساعة، إننا نتحدث عن العذراء البَتول، وعن الطاهِرة المُطهرَة، وعن التَّقيَّة النقيَّة، وعن العبادة القانِتة. نحن نتحدث عن الإنسانة التي كرَّمها ربَها، فجعلها المرأة الوحيدة التي توجد سورة كاملة باسمها في كتابه العزيز -القرآن- ولقد ورد اسمها في القرآن بأكثرَ من ثمانيةِ أضعافٍ مما وردَ فيه اسم نبي الإسلام نفسه، ونحن هنا لن نتحدث عن أخبار الصديقة البتول كلها؛ بل نتعايش مع وَمضاتٍ قليلةٍ من حياتها.

كان أبوها رضي الله عنه حِبرًا من أحبار بني إسرائيل، وإمامًا من أئمتهم، وزاهِدًا من كبار زُهَّداهم، ويرجع نسبه إلى نبي الله سليمان عليه السلام وكان أكثرَ آبائه أئمةً في العلم والزهد والتُقى، وكانت أُمُّها حِنة بنت فاقود امرأةً وَرِعة، عابدة، تحب الله حبًا شديدًا؛ والدليل أنها لمَّا حملت، وهبَت من في بطنها له -جل شأنه- وكانت تتمنى أن يكون الحمل ذكرًا، فلما وضعت حملها أنثى، ذهبا بها إلى القدس؛ لكي يربياها تربيةً تصنع منها امرأةً عظيمة من عظيمات التاريخ.

وقد كفلها نبي الله زكريا عليه السلام بعد أن تنازع كِفالتها كبار علماء بني إسرائيل، فكلهم يريدون أن ينالوا شرف تربية ابنة عالمهم الشهير عمران. وأجرى الله على يديها

الكَرامات، وصان قلبها من الهواجس والشبهات، وأعدها إعدادًا خاصًا، يليق بأمثالها من الصالحات القانتات، وقد أعان زكريا ﷺ في تربيتها زوجته -وهي خالة مريم- وكانت امرأة صالحة بارة بزوجها، وأهلها، وجيرانها.

وقد أعدَّ زكريا ﷺ مكانًا خاصًا في مِحراب المعبد؛ ليصونها عن أعين الناظرين، ولم يدخل إليها أحدٌ إلا هو وامرأته، وكلما دخل إليها وجد عندها رزقًا، ساقه اللهُ إليها، فسألها عن هذا الرزق الذي يأتيها، وهو في دهشةٍ وتعجبٍ؛ فتجيبه بثقةٍ وإخلاص: إنه قد جاءها من عند ربها، دون أن تعرف متى وكيف جاءها؟

ولمّا بلغت مَريم ﷺ رُشدها اعتزلت قومها؛ لتتفرغ تمامًا لعبادة ربها ﷻ فاتخذت لها مكانًا خاصًا بها، لا يصل إليه أحدٌ، وتركها زكريا ﷺ وشأنها، وربما لقي ربه ﷻ فخشيَت على نفسها من أن يمسسها سوءٌ من قِبل المتعبدين بعضه، فأرسل الله إليها أمينَ السماء: جبريل ﷺ في صورة رجل سويٍّ؛ فحسبته رجلًا يريدها بسوءٍ، فاستعاذت بالرحمن منه، والتمَست من ذاك المتمثِل أمامها أن يفارقَها إن كان تقيًا، يخاف اللهَ، ويخشى عذابه؛ فأخبرها أنه رسولُ ربها، جاء يبشرها بغلام زكيٍّ؛ فتعجبت من ذلك تعجبًا شديدًا، وقالت: كيف يكون لِي غلامٌ، ولم يمسسني زوجٌ؟ ولم أكن من البغايا، ولن أكون أبدًا.

فقال لها أمينُ السماء: هذا قضى الله به، وهو أمرٌ عليه هيِّن، وإنه -سبحانه- سيجعله آيةً للناس، يرون فيه عجائبَ صُنعه، ودلائل قدرته، وأمر الله نافذ، وقضاؤه محتومٌ؛ فنفخ جبريل فيها، فحملت به في الحال، فلمَّا رأت الحمل احتجبت عن قومها، واتخذت لها بيتًا بعيدًا عنهم -هو في بيت لحم، على ما قال أكثر المؤرخين والمفسرين- فلما آنَ موعد ولادتها، وجاءها المَخاض، ألجأها الطلق إلى جِذع نخلةٍ، كانت هناك، فأمسكَت حتى وضعت حملها، فتمنَّت يومها أن تكون في عداد الأموات، ينساها الناس؛ فلا يذكرونها مطلقًا.

وفي ذلك يقول رب العزة -سبحان-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا

مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ) (مريم: ١٦ _ ٢٣).

ولمَّا وضعت حملها، لم تدرِ كيف تواجه قومها به؟ وهي من هي في الصلاح والتقى، والنزاهة والعفة، فإذا بأمين السماء جبريل عليه السلام يناديها من تحتها -أي: من جهة قريبة منها- قائلاً لها: لا تحزني ما دام الله معكِ، ولا تخشي على نفسك من القِيل والقال، وأجمعي أمركِ، وارعي ولدكِ، واعلمي أن الله قد منَّ عليك بالماء والطعام؛ فالنهر أمامك والنخلة فيها غذاؤك؛ فضمها إليك بواسطة جذعها تساقط عليك رطبًا طازجًا، فكلي واشربي هنيئًا مريئًا، واهدئي بالًا، وطيبي نفسًا.

فإن رأيتِ أحدًا من الناس ينظر إليكِ، ويعرف من أنتِ، وأراد أن يسألك عما تحملينه بين يديك: فاعتذري منه عن عدم التكلم معه، بأنك قد نذرت للرحمن؛ صومًا في يومك هذا بألا تكلمي إنسيًا، إنه لَترتيب إلهي حكيم، يترتب عليه ما تحبه وترضاه من البراءة التامة، مما سترمي به حتمًا على أحسن وجوه البراءة المعجزة، وفي ذلك يقول رب العزة -سبحانه-: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (مريم: ٢٤- ٢٦).

ولقد امتثلت مريم رضي الله عنها لأمر ربها؛ فاستجمعت قُواها، وأخذَت طريقها من بيت لحمٍ إلى قومها ببيت المقدس، وهي واثقة من تبرئة اللهِ لساحتها بما شاء، وكيف شاء، فلمَّا رأوها تحمل وليدها بين يديها، وقالوا ما وسعهم أن يقولوا، وسخروا منها، وتندروا بها، وأفرغوا جهدهم في قذفها وسبها، وهي صامتةٌ، لا تتكلم، فلما

اجتمعوا عليها، ولَمْ يبقَ منهم في القرية رجلٌ، ولا امرأة إلا خرج؛ ليَسهم بنصيبه في توبيخها وإحراجها، فأشارت إليه إشارة فهموا منها أنها تقول لهم: سلوه مَن هو؟ ومَا حاله؟ ومِن أين أتى؟ فازدادوا تماديًا في السخرية والاستهزاء، وقالوا: عجبًا لك! لِمَ لا تتكلمين أنتِ؟ أتريدين أن نكلِّم صبيًا في المهد، لا يفهم سؤالًا، ولا يحار جوابًا، ولا يقدر إلا على البكاء والعويل؟

فإذا بالصبي يتكلم بكلام فَصيحٍ، يُعلن فيه عن نفسه، وعمَّا خلقه الله من أجله، وعن حاله مع ربه، وحاله مع والدته، فمنهم مَن عرف الحق، وأدرك حقيقة المعجزة، وآمن بالذي خلق فسوَّى؛ فاعتذر لمَريم، وتاب وأناب، ومِنهم مَن ظلَّ في نفسه شيءٌ من الشك والشُبهة، وفي ذلك يقول رب العزة -سبحانه-:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٢٧- ٣٣).

ولقد كانت مَريم وابنها من آيات الله الكبرى للعالمين جميعًا، من أنس وجن، آية تدل على أنَّ اللهَ هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، القادر المُقتدِر، الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماء، وقد ضربها الله مثلًا للذين آمنوا في كل زمان ومكان، هي وآسية امرأة فرعون إذ قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١١- ١٢).

أمَّا بعد، لقد كانت مريم ﷺ مثلًا رائعًا في العفاف والنبل، والخضوع والتواضع، والتعبد لخالقها ومولاها -جل شأنه، وعز جاهه، وقَوي سلطانه- فقد لاذت به في

محنتها، ووثقت في نجاتها من ألسنة قومها، وأحسنَت التوكل عليه في أمرها كله، وصدَّقته كل الصدق في أقوالها وأفعالها، وتبتلت إليه منذ طفولتها، وكانت من خيرة خلقه، ومن صفوة المقربين إليه.

وَمَن أراد أن يتعرف على الطُهر في أرقى معانيه؛ فليتوصلْ إلى معرفته في أوصافها، التي خلعها الله عليها، ومن أراد القدوة في الفرار إلى الله وجدها عندها؛ فقد صدَّقت بكلمات ربها -أي: بوعده ووعيده وقضائه وقدره- وصدَّقت بكتبه السماوية كلها، وكانت من القانتين جميعًا، رجالًا ونساءً سواء، ولم تكن من القانتات فحسب، وهذا معناه أنها سبقت أهل زمانها في ذلك عمومًا، فلم يفوقْها أحدٌ من النساء والرجال في هذا المِضمار.

الدر المنثور في التفسير بالمأثور-أضواء البيان-تفسير ابن كثير-لباب النقول في أسباب النزول-معالم التنزيل للبغوي-جامع البيان في تفسير القرآن-الجامع لأحكام القرآن-البرهان في علوم القرآن-البداية والنهاية-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-قصص الأنبياء-فهم القرآن للمحاسبي-الآثار الباقية عن القرون الخالية-الإتقان في علوم القرآن.

***

# امرأة اختارَت جوار ربها

والله إن القلب ليرتجف، وأنا أَهُمُّ بالكتابة عن هذه المرأة الرزينة، إننا على موعدٍ مع الصديقة الوَلِيِّة، والراضية المَرضيِّة، والمؤمنة التقية، والراسخة الثابتة الأبيِّة، والزاهدة الصفية، والشهيدة الهنية، حديثنا في هذه الورقات عن البطلة التي انتصرت بإيمانها على أقوى جبَّارٍ عرفته الأرض في التاريخ، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، إنها أقوى امرأة خلقها الله في الدنيا، إنها امرأة عجزت كلمات الشعراء عن تخليد سيرتها؛ فخلَّدها رب الشعراء في كتابه بكلماته، إنها المرأة التي أسقطت جبروت فرعون، وأرغمت أنفه في الأرض، إنها الملكة العظيمة السيدة الرزان آسية بنت مُزاحم ﵂.

لم تكن آسية بنت مزاحم ﵂ امرأة عادية في دنيا البشر؛ بل كانت سليلة الملوك، فجَدُّها الأكبر الوليد كان مَلكًا لمصر، في عهد نبي الله يوسف ﵇ وهي كذلك ملكة مُتوجة على عرش مصر، لديها من الذهب والمجوهرات ما لا يُحصى ولا يُعد -ولِمَ لا؟ فقد كانت ملكة من ملكات مصر القديمة، التي كانت جنة الله في أرضه- وقد تركت ﵂ ذلك كله في سبيل الله، فتعالوا بنا؛ لنتعايش في رحاب الإيمان، والفضائل الحسنة، والخلق القويم.

وكانت آسية بنت مزاحم امرأة صالحة، كانت تدين بدين إبراهيم، منذ نعومة أظفارها، وكانت تسمى في عصرها "إيست نفرت"، ولكن النبي ﷺ سماها: آسية -وهو اسم قريب من إيست- فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري: "كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

وقال ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في

مسنده، عن أنس بن مالك ﷺ: "خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله".

آسية هي آسية بنت مزاحم بن عبيد الديان بن الوليد، وهي ترجع لأصول أسرة عربية، حكمت مصر مدة من الزمان، وكان من عادة الملوك أن يصاهروا بعضهم البعض، فتزوجها فرعون؛ ليجعلها أثيرة إلى قلبه، دون زوجاته الأخريات، على الرغم من كونها امرأة عقيم.

لذلك ما إن رأت آسية التابوت الذي ألقت به أم موسى في النيل، حتى تعلَّق قلبها به، ولنتحول الآن إلى نهر النيل، ولنتخيل أخت موسى وهي تمد الخُطى؛ لتراقب ذلك التابوت، الذي قذفت به أمها في مياه النيل، من خلال سياق قراني مُعجِز، فقد قال رب العزة -سبحانه- واصفًا لنا هذا المشهد المهيب:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (القصص: ٧ إلى ١٢).

من خلال حديث القرآن عنها نستطيع أن تتعرف على شخصيتها السويِّة، وإيمانها القوي، وهمتها العالية، وحكمتها البالغة؛ فهي امرأة ضربها الله مثلًا للذين آمنوا جميعًا: رجالاً ونساءً؛ لكي تكون قدوة لمَن أراد أن يحقق لنفسه شُعب الإيمان كلها، ومكارم الأخلاق في أسمى درجاتها، إنها امرأة كانت تحت أكبر طاغية في تاريخ البشرية، رجلٌ يدَّعي أنه الرَّب الأعلى، ومع ذلك احتفظت لنفسها بخصال الخير كلها، المتمثلة في الإيمان بالله، إنها امرأة آثرت ما يبقى على ما يفنى، وسألت ربها أن يبني لها عنده

بيتًا في الجنة، وقد قدمت ﷺ حبها لربها -تبارك وتعالى-؛ فقد اختارت الجار قبل الدار.

وتلك حكمةٌ سامية، وهبها الله لها، بها تمكنت من حبه وقربه، وسألت ربها تضرعًا، وتواضعًا أن ينجيها من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين، الذين يركنون إليه، ويعملون له عملًا، لا يرضاه الله ﷻ إنها تريد أن يبرئها الله من الظلم والظالمين، وأن يعصمها من الزلل الذي وقع فيه فرعون من رأسه إلى مشاش قدميه، وأعانه عليه المجرمون من قومه، وصبرت على ذلك صبرًا يُكتب بماء الذهب في صفحات التاريخ.

أتعلمون علامَ صبرت الملكة آسية، التي تعودت على الفرش الحريرية، والوسائد الذهبية؟ لقد خيَّرها عدو الله فرعون بين الكفر أو العذاب، فاختارت هذه البطلة -بالثقة والإيمان كليهما- العذاب على الكفر، وأبَت أن تعطي الدنيا في دينها، لذلك أشرف فرعون نفسه على تعذيبها؛ إذ عزَ عليه أن يُخرج أقرب الناس إليه -زوجته- على عقيدته؛ لتتبع عدوه موسى، فأمر بإنزال أشد أنواع العذاب عليها، حتى تعود إلى ما كانت عليه، لكنها بقيت كالطود الراسخ، وظلت مؤمنة محتسبة صابرة.

هنا أمر فرعون جنوده أن يطحوها على الأرض، ويربطوها بين أربعة أوتاد؛ لتنهال السياط على جسدها، وهي صابرة على هذا البلاء، محتسبة على ما تجد من أليم العذاب، ثم أمر الطاغية فرعون بوضع رحَى على صدرها، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة، وقبل أن يُنفذ ذلك جاءها الطاغية؛ ليعرض عليها العفو، مقابلَ أن تكفُر بالله، فنظرت إليه نظرة استحقار، ثم نظرت في السماء -وهي معلقة بين الأوتاد الأربعة- فدعت الله بأعجب دعاءٍ دعته امرأة في التاريخ فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم: ١١).

فاختارت هذه المرأة الكريمة الجوار قبل الدار، اختارت أن تكون جارة لله، فقالت: عِنْدَكَ، قبل بَيْتًا، فكان لها ذلك، فارتفعت روحها إلى بارئها، تظلها ملائكة

السماء بأجنحته؛، لتسكن في الجنة، لتستحق هذه المرأة العظيمة أن تكون من أعظم نساء التاريخ على الإطلاق، كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

والعبرة من قصة هذه المرأة المؤمنة: أنَّ العقيدة النقية من كل ما يعكر صفوها قوة لا تُقهر مطلقًا، ولا تتزعزع من قلب صاحبها مهما لقيَ في سبيلها من أذى، ومهما بذل المجرمون في سبيل اقتلاعها من جهد وحيلة؛ فالقلب الذي انعقد فيه الإيمان لا يملكه أحد سوى الله -تبارك وتعالى- ففرعون بكل ما أوتي من قوة وجبروت، لم يستطع مطلقًا أن يردها عن دينها، لا بالقوة، ولا بالإغراء؛ بل إنَّ بغضه لها، وتنكيله لها، لم يزدها من الله إلا قربًا.

امرأة فرعون قد ضربها الله مثلًا للمؤمن، الذي لا يضره مَن ضل إذا كان على الهدى، ولا يصده صادٌ عن الصراط السويّ إذا تمكن من الاستقامة إليه، ولو لم يكن هناك مؤمن سواه يشاركه آلامه وآماله، إنها امرأة عاشت في قصر رجل جبار، طبع الله على قلبه، وكانت من أقرب الناس إليه؛ فهي زوجته وصاحبته بالجنب، وله عليها حقُ الطاعة، على الرغم من ذلك؛ فإنَّها لم تتأثر بخبثه ومكره، وفساد حاله، وسوء أفعاله وأقواله، ولم تتأثر كذلك بمن حولها ممن هو على شاكلته، ولم يغرها زخرف الدنيا، ولا متاعها الفاني، فهي إذن، خير مثل لكل امرأة تعاني ما تجده من زوجها من صلف وغرور، وفساد في الطبع، وشراسة في الأقوال والأفعال؛ لأن إيمانها يمنحها الصبر على ما تكره، وقوة الاحتمال لِما تعانيه.

إنها نموذج عالٍ في التجرد إلى عبادة الخالق وحده -جل وعلا- لا تصانع أحدًا مهما كان قدره في عقيدتها، ولا تخاف من أحد سوى الله -جل شأنه- فكانت بحق هي أقوى امرأة في عصرها، وفي أكثر العصور من قبلها ومن بعدها؛ فهي واحدة من أربع: هُنَّ خير نساء العالمين، كما ورد في الحديث.

وإنني أدعو كل امرأة تؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا مرسلًا، أن تجعل هذه المؤمنة الصبور قدوة لها في الصبر والمصابرة على زوجها إن أساء عشرتها

وقسا عليها، أو بخسها حقها، أو كان عائقًا لها عن تأدية ما افترض الله عليها؛ فإن الله سيجعل لها من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، وسيبدل عسرها يسرًا، وخوفها أمنًا. وأوصيكِ -أيتها المرأة المسلمة- أن تحاكي هذه العابدة الزاهدة، المخلصة لدينها في تضرعها إلى ربها ﷻ؛ فقد جعلت نُصب عينها أن تكون في جوار الله ﷻ في بيتٍ يبنيه الله لها؛ تنعم فيه بقربه وحبه ورضوانه.

صحيح البخاري-صحيح مسلم-مسند الإمام أحمد-المستدرك على الصحيحين-مختصر تاريخ البشر-ملوك مصر للصفدي-فتح الباري-تفسير الطبري-تفسير ابن كثير-الجامع لأحكام علوم القرآن-البداية والنهاية-تاريخ الطبري-الكامل في التاريخ-البرهان في علوم القرآن-الإتقان في علوم القرآن-لدر المنثور في التفسير بالمأثور-تفسير البغوي-تفسير البيضاوي-روح المعاني-تفسير البحر المحيط.

***

# المُؤمنة المُلهِمة

لقد كانت هذه السيدة هي أساس قيام الأمة بعد سنوات من الهزيمة والانحدار، ولقد كان بناء أمة بأسرها يبدأ بامرأة واحدة، بل كانت هزيمة، وأعتى قوة إجرامية على مر التاريخ الإنساني، تبدأ بتلك المرأة المؤمنة، وهزيمة أعظم جبار، عرفه تاريخ البشرية، بدأت بامرأة فقيرة، تسكن في بيت صغير على ضفاف النيل، وهنا يأتي دور المرأة المسلمة في صناعة النصر، فالمرأة هي التي أراد الله من خلالها أن يمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة. هذه المرأة المؤمنة العظيمة، هي وابنها مَن غيروا مجرى التاريخ الإنساني، إنها الأم الرزان الصابرة: يوكابد بنت هاند أم موسى ﷺ فهيا بنا؛ لنتجول بين أروقة التاريخ، لنري هذا المشهد العظيم.

جاء على عرش مصر فراعنة، يبغضون بني إسرائيل بُغضًا شديدًا -لقد حسب بعض ملوك مصر بني إسرائيل أحفاد نبي الله يوسف بن إسرائيل ﷺ قد تعاونوا مع الاحتلال الهكسوسي لمصر، حينما قَبِل يوسف ﷺ منصب الوزير لعزيز مصر، حتى جاء على عرش مصر طاغية جبارٌ متكبرٌ، لا يرى فوقه أحدًا -قِيل هو رمسيس الثاني، وقِيل غيره-لم يكن مؤمنًا بالله، وكان مغرورًا بملكه وقصوره، ودعا الناس إلى عبادته والسجود له، وأطاعه أغلب الناس في ذلك.

وفي إحدى الأيام رأى فرعون في منامه أنه سيولَد في بني إسرائيل مولودٌ، سيدمر حكمه، ويزيل سلطانه، فجن جنونه، وأمر هذا الطاغية السفاح الشرطة بقتل مواليد بني إسرائيل كلهم من الذكور، وانتشرت الشرطة في كل شوارع مصر؛ يفتشون ويبحثون، فإذا علموا مولودًا وُلد في بني إسرائيل، أخذوه وذبحوه كما تُذبح النعجة.

وذُبِح ألوف من الأطفال أمام آبائهم وأمهاتهم، وكان اليوم الذي يُولد فيه مولود في بني إسرائيل يومًا عسيرًا.

لقد أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من هذا الغلام، فما نفعه ذلك، إذ أراد الله ﷻ أن يقع ما كان فرعون يخافه ويحذره، ووُلد ذلك المولود، الذي قدر الله أن يكون سبب هلاك فرعون على يديه؛ بل يكون هذا الغلام الذي احترز من وجوده فرعون، وقتل بسببه ألوفًا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه في قصر فرعون.

كانت أم موسى قد ولدت موسى عليه السلام ولكنها خافت على مولودها، وكيف لا تخاف والطاغية لهم بالمرصاد؟ وكيف لا تخاف وقد اختطفت الشرطة عشرات من الأطفال من حجر الأمهات في أسرتها؟ فماذا تصنع الأم المسكينة؟ وأين تخفي موسى من عيون الشرطة، هنالك أغاث الله الأم المسكينة، وألهمها أن تضعه في صندوق وتلقيه في النيل.

فقد قال رب العزة سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص: ٧ – ١٣ ).

لقد أوحى الله إليها وحي إلهام، أو أرسل إليها ملكًا يكلمها، وهي لا تراه، أو أراها ذلك في المنام أن ترضع وليدها، ما دامت آمنة عليه، فإذا خافت عليه ألقته في اليم، وهي مطمئنة عليه من أي خطر يهدده، غير آسفة على فراقه؛ فإنه –سبحانه– سيعيده إليها سالمًا، لم يمسه سوء، وبشَّرها بأنه سيكبر في حجرها، ويبلغ مبلغ الرجال، ثم يجعله نبيًا مرسلًا.

فظلت ترضعه مدة، فلما أدركها الخطر، ورأت زبانية فرعون مقبلين عليها، أعدت له من فورها تابوتًا محكمًا، وألقته فيه، كما أمرها ربها ﷻ وقذفته في اليم بعد ما ربطته، وقذف النيل التابوت إلى قصر فرعون؛ فأرسلت امرأته آسية بنت مزاحم ﵂ الخدم في طلبه.

وجاء الخدم بالتابوت إليها، فلما فتحته، أبصرت وليدًا بهيَّ الطلعة، جميل الصورة، مستنير الوجه؛ ففرحت به فرحًا شديدًا.

فلما جاء فرعون، وأبصره، غضب من وجوده في بيته؛ وقد رأى أنه ليس من بني جلدته، وأمر بذبحه على مرأى منه، فاستوهبته منه آسية، ونهت عن قتله، وقالت لفرعون: دعه حيًا؛ ليكون قرة عين لي ولك، نسعد برؤيته، وننعم بوجوده معنا في بيتنا، وعسى أن ينفعنا في تدبير شؤون الملك، أو نتخذه ولدًا؛ ننسبه إلينا، ونفخر به بين أهلينا وذريتنا؛ فاستجاب لها بعد أخذ ورد.

أمَّا أم موسى، فإنها قد أصبح قلبها خاليًا من كل شيء إلا من وليدها، ولقد كادت تفقد وعيها، وتُظْهر أنه وليدها، وتستغيث بمَن يأيتها به، ويستخلصه باللين أو بالشدة من أيدي أولئك الفجار، الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وتجردوا من الصفات الإنسانية الخيرة كلها، غير أن الله ﷻ ثبت قلبها، وقوَي عزمها على الصبر والاحتساب، وذكَرها بما وعدها به؛ فالتزمت جانب الحكمة، وأخذت بالأسباب، واستعانت بالله على تحقيق المطلب، كما هو شأن المتوكلين؛ فأرسلت أخته؛ لتبصر حاله في قصر فرعون من بعيد؛ خوفًا عليها من بطشهم، ولكي لا يشُكُّوا في أمرها؛ فيحملوها بالقوة على الاعتراف بأنه أخوها؛ فيقتلونه ويقتلونها.

فانطلقت تتتبَعُ أثره؛ لتعلم خبره عن قرب، حيث اتخذت لها جانبًا من جوانب القصر، بعيدًا عن الشك والتهمة؛ فبصرت به، وعرفت أنَّ امرأة فرعون جاءت له بمُرضعات كثيرات؛ فحرَّمهُنَّ الله عليه، فلم يتناول ثدي واحد منهنَّ.

وهنا تدخلت تنصح لهم فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يحسنون كفالته،

ويكرمون مثواه، ويقومون بشأنه كله خير قيام؟

فقبلوا منها هذا النصح، بعد أن استوثقوا من صدقها، وأيقنوا أنها لا تعرف الوليد، وليس لها به صلة، فدلتهم على أمه؛ فأرسلوا إليها، وهم لا يشعرون بأنها أمه، وقدموا لها الوليد؛ لترضعه، فتناول ثديها وامتصه بسهولة ويسر؛ ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا.

وقالت آسية امرأة فرعون لها: اسكني معنا في هذا القصر المنيف؛ لترضعي هذا الوليد الوضيء، فاعتذرت بأنها لا تستطيع أن تعيش معهم في القصر؛ ولها زوج وأولاد، وطلبت منهم أن تصحبه إلى بيتها، فأجابوها إلى طلبها، وأرسلوه معها، وأغدقوا عليها، وأوسعوا لها العطاء، وعاش موسى عليه السلام مع أمه في أمن ورخاء؛ حتى شبَّ على الطوق، وبلغ أشده، واستوى عوده، فقرَّت به عينها صغيرًا وكبيرًا، ونعمت بصحبته، حتى لقيت ربها ﷻ.

لقد مرت أم موسى عليها السلام بظروف قاسية؛ فتلقتها بالرضا، واستعانت بربها على تخطيها بسلام؛ فمرت بها تلك الظروف مرور الكرام، وتحقق لها وعد الله بنجاة وليدها من خطر، لا يتوقع أحدٌ له منه نجاة، ورده إليها في عزة وكرامة، وكفله -جل شأنه- بعنايته ورعايته، وألقى عليه محبة منه في قلب كل من رآه، وهذا جزاء من تزكى وتطهر، وصبر وشكر، وأسلم أمره كله لخالقه ومولاه، فسلام عليها في الخالدين.

البداية والنهاية-تاريخ الطبري-الكامل في التاريخ-البرهان في علوم القرآن-الإتقان في علوم القرآن-الدر المنثور في التفسير بالمأثور-تفسير البغوي-تفسير البيضاوي-روح المعاني-تفسير البحر المحيط -تفسير الطبري-تفسير ابن كثير-قصص الأنبياء لابن كثير-مؤمنات لهن عند شأن-المستفاد من قصص القرآن-البداية والنهاية-تفسير القرطبي .

***

# المرأة المؤمنة

المرأة المسلمة في تاريخ الإسلام لم تكن أقلَّ ثباتًا في دينها من الرجل، ولا أقل تضحية وبذلًا في سبيل عقيدتها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال؛ إذ ضحت من أجل إسلامها بكل ما تملك، غير مُبالية بما يصيبها من أذى، متحملة المصائب في سبيل دينها، فقد كانت مثلًا صادقًا في العقيدة التي رسخت في أعماق قلبها، وخلَت من كل شبهة ترد عليها، واستهانت في التمسك بها بما لقته في سبيل نصرتها من ويلات، ولقد كانت ﵂ مثلًا صادقًا في التضحية والصبر والمصابرة.

ضيفتنا في هذه الورقات امرأة دخلت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت:٣)، فهذه المرأة لم يبتليها ربها فحسب؛ بل ابتلاها الله ﷻ بطاغية متكبرٍ، لا يعرف التاريخ مثله في التكبر والظلم: إنه أكبر طاغية في التاريخ: فرعون موسى ﵇ وإننا الآنَ نتحدث عن ماشطة بنت فرعون ﵂ هذه المرأة التي لم تكن أكثر من امرأة صالحة، عاشت هي وزوجها وأولادها في ظل قصر الطاغية فرعون.

فقد كان زوجها أحد رجال فرعون، ومن المقربين إليه، بينما كانت زوجته هي ماشطة لبنات فرعون، فمنَّ الله عليهما بالإيمان؛ فامنوا بالله رب العالمين، وبنبيه الكريم موسى بن عمران ﵇ فلم يلبث أن علم فرعون بإسلام هذا الرجل المؤمن، فقتله في التو واللحظة.

ولما رأت ماشطة بنت فرعون ما حدث لزوجها أخفت إسلامها، واستمرت في العمل في قصر فرعون تمشط بناته، وتنفق على أولادها الخمسة، وفي إحدى الأيام بينما هي تمشط ابنة فرعون، إذا بالمشط يقع من يدها على الأرض، فتناولته هذه المرأة المؤمنة من الأرض، وهي تقول: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: الله أبي!

فصاحت المرأة المؤمنة بابنة فرعون: كلَّا، بل الله ربي وربك، ورب أبيك، ورب الناس أجمعين، فغضبت ابنة فرعون، وذهبت فورًا إلى أبيها؛ لتخبره بأمر ماشطتها، فثار فرعون، وغضب غضبًا عظيمًا بوجود من يعبد الله بقصره، فأحضرها وقال: ويحك! مَن ربك؟

فقالت المرأة المؤمنة: ربي، وربك، ورب الناس الله، فغضب فرعون أكثر من ذي قبل، وأمرها بالرجوع عن دينها، وإلا حبسها، وعذبها، وألحقها بزوجها، فأبَت المرأة المؤمنة أن ترتد عن دين ربها لكلام هذا الطاغية.

فأمر فرعون رجاله بإحضار قدْر من نُحاس، فمُلئت بالزيت، ثم أحمي عليها النار، حتى غليَ، فأوقفها أمام القِدر، فلما رأت القِدر أقبلت إليه تريد الشهادة، فأمر فرعون رجاله بإبعاد المرأة قليلًا عن القِدر، وأمر رجاله بإحضار أولادها الخمسة، أحب الناس إلى قلبها، والتي صبرت على فرق زوجها، وأخفت أمر دينها؛ لتربيتهم بعد استشهاد زوجها، فأراد فرعون أن يزيد في عذابها، فأدخل أولادها الخمسة إلى غرفة التعذيب، فلما رأوا أمهم تعلقوا بها يبكون.

فانكبَّت عليهم؛ تقبلهم وتضمهم إلى حِضنها باكيةً، فأخذت أصغرهم، وضمته إلى صدرها، وأرضعته، فأمر فرعون بأكبرهم، فجره الجنود، ودفعوه إلى الزيت المغلي، والغلام يصيح بأمه، ويستغيث ويسترحم الجنود،، ويتوسل إلى فرعون، ويحاول الفكاك والهرب من الموت، ولكن الجنود يصفعونه، ويدفعونه إلى الزيت المغلي دفعًا، كل ذلك وأمه تنظر إليه، وتودعه بدموعها، بعد أن عجز لسانها عن الحركة، وما هي إلا لحظات، حتى أُلقي الصغير في الزيت، والأم تبكي، وتنظر إلى طفلها وهو يحترق.

بينما كان فرعون يقهقه، وإخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة من هول المنظر، حتى إذا ذاب لحمه على جسمه النحيل، وطفت عظامه البيضاء فوق الزيت، نظر إليها فرعون مرة أخرى، وأمر بالكفر بربها؛ لكي يعفو عنها وعن البقية، فأبَت هذه المرأة المؤمنة ذلك، فزاد ذلك غضب فرعون، فأمر بولدها الثاني، فسُحب من عند أمه، وهو

يبكي بكاءً مريرًا، وأخذ يستغيث بأمه والجنود، فما هي إلا لحظات، حتى أُلقي في الزيت، والأم تنظر إليه وتبكي، حتى طفت عظامه، واختلطت بعظام أخيه.

فما زاد ذلك المنظر الأم إلا ثباتًا على الإسلام، ثم أمر فرعون بالثالث ففعل به الشيء نفسه، ثم أمر الطاغية فرعون أن يطرح الرابع في الزيت، وما هي إلا ثوانٍ، حتى غاب الجسد، وانقطع الصوت والبكاء، فجاهدت الأم نفسها أن تتجلد، وأن تتماسك، فالتفتوا إليها، وتدافعوا نحوها، وانتزعوا الخامس الرضيع من بين يديها، فلما انتزع الجنود منها الرضيع صرخ، فانهارت الأم، ودموع الرضيع تغطي يديها، فكادت تتقاعس، وتستسلم؛ من أجل رضيعها البريء، عندها حدث شيءٌ لم يتكرر في تاريخ الأرض إلا أربع مرات.

لقد تكلم الرضيع، وقال لها: يا أماه اصبري واحتسبي؛ فإنك على الحق، ثم انقطع صوته عنها، بعد أن ألقوه في الزيت المغلي؛ لتختلط عظامه بعظام إخوته الأربعة، فها هي عظامهم يلوح بها القِدر، ولحمهم يفور به الزيت، لتنظر المسكينة إلى هذه العظام الصغيرة، وهي تتذكر أطفالها الصغار يمرحون بين يديها، ثم اندفع أولئك الجنود نحوها، وأقبلوا عليها كالكلاب الضارية، وقبل أن يلقوها في الزيت المغلي، التفت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة، فصاح فرعون: ما حاجتك؟ فقالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنها في قبر واحد، فقال فرعون وهو يقهقه: لكِ ذلك، فألقي الجند بها في الزيت المغلي؛ لتستشهد في سبيل الله، وتختلط عظامها بعظام الصغار الخمسة.

وفي ليلة الإسراء والمعراج جاءت الرواية في المُسند وفي غيره، على لسان عبد الله بن العباس ﷺإذ قال إن رسول الله ﷺ: لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها -يقصد ليلة الإسراء والمعراج-، أتت عليَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.

من خلال هذا المشهد الرائع تستطيع أن تتعرف على شخصيتها الكريمة، وإيمانها القوى، وهمَتها العالية، وحكمتها البالغة، فهي امرأة ضربت لنا مثلًا للمؤمنين جميعًا:

رجالاً ونساءً؛ لكي تكون قدوة لمن أراد أن يحقق لنفسه شُعب الإيمان كلها، ومكارم الأخلاق في أسمى درجاتها.

سنن البيهقي-مسند الإمام أحمد-المعجم الكبير-سنن ابن حبان-المستدرك على الصحيحين-البداية والنهاية-تاريخ الطبري-مختصر تاريخ البشر-تاريخ مدينة دمشق-الكامل في التاريخ-ملوك مصر من الطوفان الى الناصر بن قلاوون-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-الجامع لأحكام القرآن-معالم التنزيل للبغوي-تفسير الجلالين-تفسير الطبري-تفسير ابن كثير.

***

# أول تائبة لربها

كان الله، ولا شيء معه، فخلق الخلق، وعرَّفهم بنفسه؛ ليعبدوه، فعرفوه، وعبدوه طوعًا وكرهًا، وسبحوا بحمده بلسان الحال والمقال، وكان آدم عليه السلام من جملة مخلوقاته، خلقه فسوَّاه، فعدله، وركبه بقدرته ومشيئته في أجمل صورة، وأحسن تقويمه؛ ليسند إليه عمارة الأرض، وإصلاحها بقدر طاقته البشرية، وقد زوَّده الله -تعالى- بالعقل والعلم، وباهي به ملائكته، وعرَّفهم فضله عليهم، ومكانته عنده، ووظيفته التي أسندها إليه، وأمرهم بالسجود له -وسجود هنا يقصد به التعظيم، وليس العبادة- ثم خلق من ضلعه الأيسر حواء؛ لتكون له لباسًا وسكنًا، ولتكون أمًا لبنيه، وتعينه على تأدية وظيفته، وتشاركه آلامه وآماله.

ومن هنا نعلم أن المرأة قسيم الرجل في عمارة الأرض وإصلاحها، وإقامة حدود الله فيها، والثواب المترتب على ذلك كله، وأنَّ لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، وفق ميزان رباني فريد، أنزله رب العزة -سبحانه- من فوق سبع سماوات، وأشار إليه في كتابه بقوله -جل وعلا-: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وهذه الدرجة هي متابعتها للرجل بالمعروف، ومسؤوليته عنها، وعن سائر شؤونها بالمعروف، وهذا ما يتضح لنا في قصة آدم وحاء؛ فقد أمر الله ﷻ آدم عليه السلام أن يسكن الجنة، وأن يصحب معه حواء؛ فقال -جل شأنه- في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٥).

فوجه الخطاب إليه، بوصفها تابعة له، وبوصفه مسؤولٍ عنها، ويسكنها معه تمت له النعمة، وأكبر الظن أنها لو لم تكن معه في الجنة ما استمتع بنعيمها، سواء أكانت الجنة في السماء أم في الأرض، على ما سيأتي بيانه قريبًا، هذا حيثُ الأمر بالسكن، ولكن

التمتع بنعيهما أمرهما معًا بالتساوي، فقال رب العزة -سبحانه-: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (البقرة: ٣٥).

نعم، الرجل مسؤول عن المرأة؛ فهو الذي يشقى في تحصيل الرزق، وتحمُّل أعباء الحياة بالدرجة الأولى، والمرأة تُعين الرجل في تحمل هذه المسؤولية، بقدر طاقتها إن أرادت ذلك دون إكراه، وهما معًا في الحياة شريكان؛ يسعد كل منهما بسعادة الآخر، ويشقى كلٌ منهما بشقائه، مع التفاوت في شعور كلٍ منهم، بمقدار مسؤوليته تجاه الآخر، ونحن لا ندري هل أمرَ الله ﷻ آدم بسكني الجنة عقب سجود الملائكة له مباشرة، أم كان بعد ذلك بزمنٍ طويلٍ؟ ولا ندري هل خلق الله حواء مع آدم أم خلقها بعده بسنوات.

وقوله -تعالى-: (اسْكُنْ) يشعر بأنه سيخرج منها يومًا ما؛ لأن الذي يسكن في مكان، لا بد أن يتحول عنه، والأغلب أنه لا يملكه؛ فدخول آدم وحواء في الجنة كما قال الإمام القرطبي في تفسيره: كان دخول سكني لا دخول إقامة، وقد أباح لهما ربهما الأكل من ثمارها الطيبة، أكلًا هنيئًا مريئًا، فقال -جل شأنه-: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

والرغد: طيب العيش واتساعه، ولكنه -جل شأنه- نهاهما عن شجرة مُعينة، وأخبرهما أنهما لو أكلا منها زال النعيم، وفارقهما، وفارقاه، وبذلك يكونان قد ظلما أنفسهما، فقال -جل شأنه-: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لأنفسكما بالمعصية، وقد جاء النهي عن الأكل من الشجرة بـأبلغ أسلوب، مبالغة في التحذير، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أي: ولا تدنوا من الشجرة؛ فتسوِّل لكما أنفسكما الأكل من ثمارها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وليس المُراد الدنوَّ منها كما ظاهره، وإنمَا المراد الأكل.

وقد عاش آدم وحواء في الجنة حينًا من الدهر، لا يعلمه إلا الله، يتمتعان بخيراتها ونعيمها؛ حتى أغراهما إبليس اللعين بالأكل من الشجرة، فلما أكلا منها أخرجهما الله من

جنته إلى الأرض، التي خُلقا منها ولها، وفي ذلك يقول رب العزة -سبحانه-: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٦)، أي: أذهبهما، وأبعدهما عن الجنة، بكذبه عليهما أنه لهما ناصحٌ، كما دل عليه قوله -جل شأنه-: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠-٢١).

أي: أنزلهما بخداعٍ منه ،وغفلة منهما، فقد أقسم لهما بالله -تعالى- أنه صادقٌ فيما ادعاه، فظنَّا أنه لا يجرؤ أحد أن يحلف بالله كذبًا، فصدَّقاه، وغفلا عن تحذير الله لهما في قوله: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: ١١٧).

وقد أغراهما اللعين على حين غفلةٍ منهما، بأنهما لو أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها لكانا كالملكين، في القوة والنور واللا تأثر بالتفاعلات الكونية المؤلمة، وغير ذلك من الخصائص التي تتميز الملائكة بها، وسيكونان من الخالدين، الذين يطول بقاؤهم، وهما يحبان ذلك، بحكم ما رُكّب فيهما من غريزة حب التملُك ،وحب البقاء، ولو نظرنا إلى ما جرى به القدر لوجدنا أن آدم ﷺ لم يكن عاصيًا لله عن تعمد وقصد، وإنما عن خطأ وقع فيه، وأغراه إبليس به، فنسي النهي عن الأكل من الشجرة، ونسيت زوجه أيضًا؛ فأكلا منها؛ فأهبطهما الله إلى الأرض، ليعمراها.

وقد عذر الله آدم ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥)، أي: فنسي نهي الله له عن الأكل من الشجرة، وتحذيره من الشيطان، ولم يكن له عزٌ على المعصية، فوقع فيها قضاءً وقدرًا؛ فيكون بذلك عاصيًا، بمخالفةٍ لا يستحق العقوبة عليها؛ لهذا تلقَّاه الله بالكلمات التي تاب بها عليه، وهي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٣).

وقد كان آدم عليه السلام أول تائب إلى الله ﷻ وكانت حواء أول تائبة إلى الله تبارك

وتعالى، كما أنهما كانا أول مُخطئين في حق الله -تعالى- في الظاهر، ويذهب فريق من العلماء إلى أن حواء هي السبب في إخراج أبينا آدم من الجنة، ويقولون: لولاها ما استجاب لإغراء إبليس اللعين.

والحق أن آدم وحواء كانا شريكين في قَبول هذا الإغراء سواء؛ لأن الشيطان كما وسوس له، وسوس لها، فلا نتصور أنَّ آدم يميل إلى إغراء زوجه بطاعة إبليس، وهو القوَّام عليها، والأقوى منها إيمانًا بالله، وحَزمًا في تقدير أبعاد الأمور، فهي وإن كانت قد قطفت الثمرة فقد اشترك معها بالقبول والأكل منها، وكان قطفها للثمرة موافقًا لهواه، ولرغبته في الخلود.

وقد ألحَّ كثيرٌ من الناس في الإجابة عن سؤالٍ، طالما تردد على ألسنة العلماء والعَوَام: هل الجنة التي أسكن الله فيها آدم هي جنة الخلق أم جنة في الأرض؟ والخلاف بين العلماء في هذه المسألة لم يُحسم حتى الآنَ، فقد أخفاه الله عنا، فلا ينبغي أن نسأل عنه، أو نفكر فيه، لكن لا بأس أن أطفئ ظمأ هؤلاء السائلين بأن الراجح عندي: أن الجنة التي أسكن الله فيها آدم جنة أرضية، كثيرة الأشجار، طيبة الهواء، فيها من كل الثمرات، لا يجد المرء فيها حرًا ولا بردًا، ولا جوعًا ولا ظمأً.

وفي القرآن آياتٌ كثيرة تؤكد هذا المعنى، منها قوله -تعالى-: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٦٦).

ويكون الهبوط في قوله -تعالى-: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (سبأ: ١٥)، انتقال من بقعة إلى بقعة أقل ارتفاعًا، أو إلى بقعة منخفضة، كقوله -تعالى-: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة: ٦٤)، وقد خلق آدم من الأرض فكانت جنته إذًا في الأرض، ولو رُفع إلى السماء لصرَّح القرآن بذلك؛ لأنه أبلغ في التكريم والتعظيم، وجنة الخلد ليس فيها لغوٌ ولا تأثيم، فكيف يوسوس له إبليس فيها؟ وكيف صعد إليها، ودخل فيها؟ وكيف خرج منها آدم والله يقول في حقها: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾

(الحجر: ٤٨)، وجنة الخلد دار نعيم، وليست دارَ تكليف، وقد كُلف آدم وحواء بألا يأكلا من الشجرة.

وهبط آدم من الجنة التي أسكنه الله فيها إلى الأرض، وعاش فيها هو وزوجه حواء زمنًا طويلًا، لا علم لنا بتقديره، فأخرج الله منهما ذرية تفرقت في جنباتها، وكثُر النسل، وعم الفضل، وبارك الله في الأرض، ومَن عليها من البشر، وبعث فيهم رسلًا مبشرين ومنذرين.

وكرَّم الله هذه الذرية على كثير ممَن خلق تفضيلًا، وسخر لهذا الإنسان ما في البر والبحر، فكان منهم المؤمن والكافر، والبار والفاجر، وجعل بعضهم لبعضٍ ظهيرًا في خلافة الأرض، وإصلاحها وتعميرها، وفضل بعضهنَّ على بعض في الرزق، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليكون كل منهم متعاونًا من أخيه مسخرًا في خدمته.

الجامع لأحكام القرآن-معالم التنزيل للبغوي-تفسير الجلالين-تفسير الطبري-تفسير ابن كثير-روح المعاني في تفسير القرآن-تفسير البيضاوي-تفسير الرازي-الكشف والبيان في تفسير القرآن-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور-فتح القدير للشوكاني-تفسير البحر المحيط-تفسير النسفي-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن-الدر المنثور في التفسير بالمأثور-مؤمنات لهن عند الله شأن-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

***

# امرأة بألف رجلٍ

ضرب نساء الصحابة ﷺ أمثلة رائعة في الجهاد في سبيل الله -تعالى- والتضحية من أجل هذا الدين؛ دفاعًا عن الحق الذي كُنَّ جنوده، وطمعًا في نيل الشهادة، وإثباتًا للعالم جميعًا أن للصحابيات الجليلات دورًا عظيمًا في تغيير مجرى التاريخ والتأثير فيه، وكان الدفع لهُنَّ دائمًا الإيمان بالله، ولأن الإيمان قوةٌ ساحرةٌ إذا تمكَّنت من شعاب القلب، وتغلغلَت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكنًا.

حديثنا في هذه الورقات عن امرأة من أولئك اللاتي تألق ذكرهُنَّ في تاريخ المؤمنات الصابرات الصادقات؛ فقد ثبتت دائمًا مع من ثبت في المواقف الصعبة، التي لا يثبت فيها إلا أصحاب العقائد الراسخة، وقد عاشت حياة الصبر على المحن العظيمة، والابتلاءات الشديدة، وصبرت على البأساء والضراء، إنها أسطورة نساء الصحابة، أعظم مُجاهدة في تاريخ الإسلام، المرأة التي كان لها دورٌ عظيمٌ في ساحات الوغى: أُحد واليَمامة وغيرهنَّ، إنها أم عمارة "نُسيبة بنت كعب" المازنية الأنصارية ﷺ هذا المثل الحي الذي يُثبت للكون كله أنه لا مستحيل في ظل العقيدة الراسخة، والإيمان العميق.

لقد كانت أم عمارة ﷺ من خيرة المجاهدات، اللاتي ضربنَ بسهم وافرٍ في نُصرة الدين في كثير من مواطن العزة والفداء، وأثبتت للعالمين أنَّ المرأة المسلمة لو تسلحت بالإيمان الكامل، والعز الصادق، والإرادة القوية لصنعت المعجزات، وضربت أروع الأمثال في البطولة النادرة، والشجاعة الخارقة، للعادة وسيرتها ﷺ سيرة عطرة تفوح بالبطولة والإخلاص، وصدق الوفاء، والثبات، إذ يفر الكمأة الصناديد، وإليك موقفٌ من هذه المواقف الخالدة، وهو ثباتها العظيم يوم "أُحد".

خرجت أم عمارة ﷺ إلى غزوة أحد، تحمل سقاءها؛ لتروي ظمأ المجاهدين في

سبيل الله، ومعها لفائفها؛ لتضمد جراحهم، ولا عجبَ! فقد كان لها في ساحة المعركة زوجٌ، وثلاثة أفئدة: هم الرسول القائد ﷺ وزوجها البطل: زيد بن عاصم، وولداها: حبيب، وعبد الله ابنا زيدٍ، وذلك بالإضافة إلى إخوتها من المسلمين المدافعين عن دين الله، المنافحين عن رسول الله، وقبل ذلك كله دين ربها الذي آمنت به، فكان عندها أغلى من كل شيء، حتى من نفسها وأولادها.

ثم كان ما كان يوم "أُحد" عندما بدأ وجه المعركة يتبدل وانكشف المسلمون، ولقد رأت ﷺ بعينيها كيف تحول نصر المسلمين إلى هزيمة كبرى! وكيف أخذ القتل يشتد في صفوف المسلمين فيتساقطون على أرض المعركة شهيدًا إثر شهيدٍ، وكيف زلزلت الأقدام! فتفرق الرجال عن الرسول القائد ﷺ حتى لم يبقَ معه إلا عشرةٌ، أو نحو من عشرة.

مما جعل صارخ الكفار ينادي: لقد قُتل محمدٌ، لقد قُتل محمدٌ، عند ذلك أَلْقَتْ "أم عمارة" سقاءها، وأخذت سيفها، وانبرت إلى المعركة كالنمرة التي قصد أشبالها بشر، ولنترك لأم عمارة نفسها الحديث عن هذه اللحظات الحاسمات، فليس كمثلها مَن يستطيع تصورها بدقة وصدق، فقد قالت أُمُّ عمارة:

خرجت أول النهار إلى أُحد ومعي سقاءٌ، أسقي منه المجاهدين، حتى انتهيت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين -أي: كانوا منتصرين حينئذٍ- ثم ما لبث أن انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ فما بقي إلا في نفرٍ قليلٍ، ما يزيدون عن العشرة، فمِلتُ إليه أنا وابني وزوجي، وأحطنا به إحاطة السِوار بالمعصم، وجعلنا نذود عنه بسائر ما نملكه من قوة وسلاح.

ورآني الرسول القائد ﷺ ولا تُرسَ معي أقي به نفسي من ضربات المشركين، ثم أبصر رجلًا موليًا ومعه تُرس، فقال له: ألقِ تُرسك إلى مَن يقاتل، فألقى الرجل ترسه ومضى، فأخذتُه، وجعلتُ أتترس به عن رسول الله ﷺ ولا أزال أضارب عن النبي ﷺ بالسيف، وأرمي دونه بالقوس، حتى أعجزتني الجراح، وإنما فعل بنا الأفاعيل

أصحاب الخيل، لو كانوا رجَالًا مثلنا أصبناهم -إن شاء الله- وقد أقبل رجل على فرس، فأخذ يضربني، وترستُ له، فلم يصنع شيئًا، وولَّى، فضربت عُرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي يصيح على ابني عبد الله: أُمك، فعاونني عليه، حتى أوردته الموت.

وفيما نحن كذلك، أقبل علينا ابن قميئة كالجمل الهائج وهو يصيحُ: أين محمدٌ؟ دُلوني على محمدٍ، لا نجوتُ إن نجا، فاعترضت سبيله أنا و"مُصعب بن عمير"، فصرع مصعبًا بسيفه وأرداه قتيلًا، ثم ضربني ضربة خلفت في عاتقي جرحًا غائرًا، فضربتُه على ذلك ضربات؛ ولكنَّ عدوَ الله كان عليه درعان.

كانت المعركة لا تزال مستمرة، والأسرة المجاهدة تدور حول الرسول القائد ﷺ تقية بنفسها، ثم أتبعت أم عمارة تقول: وفيما كان ابني يناضل عن رسول الله ﷺ ضربه أحد المشركين ضربة كادت تقطع عضُده، وجعل الدم يتفجر من جُرحه الغائر، فأقبلت عليه، وضمدت جرحه، وقلت له: انهض يا بني، وجالد القوم.

فالتفت إِلَيَّ الرسول ﷺ وقال: "من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟" ثم أقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال الرسول ﷺ: "هذا ضاربُ ابنك يا أم عمارة" فما أسرع أن اعترضت سبيله، وضربته على ساقه بالسيف، فسقط صريعًا على الأرض، فأقبلنا عليه؛ نتعاوره بالسيوف، ونطعنه بالرماح، حتى أجهزنا عليه، فالتفت إِلَيَّ رسول الله -صلى الله عليه- وسلم مُبتسمًا وقال: "لقد اقتصصتِ منه يا أم عمارة، والحمد لله الذي أظفركِ به، وأقر عينكِ من عدوك، وأراك ثأركِ بعينيكِ".

ولم يكن ولدا أم عمارة أقلَّ شجاعةً، وبذلًا من أُمهما وأبيهما، ولا أدنى تضحيةً، وفداءً منهما، فالولد سرُ أمه وأبيه، وصورة صادقة عنهما، فحدث ابنها عبد الله وقال: "شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ فلما تفرق الناس عنه دنوتُ منه، أنا وأمي نذب عنه فقال: ابن أم عمارة قلت: نعم يا رسول الله، فقال: ارمِ، فرميتُ بين يديه رجلًا من المشركين بحجر، فوقع على الأرض، فما زلت أعلوه بالحجارة، حتى جعلت عليه

منها حمْلًا، والنبي ﷺ ينظر إليَ ويبتسم".

وحانت منه التفاتة، فرأى جُرح أمي على عاتقها، يتصبب منه الدم، فقال: "أُمك يا عبد الله، أمك، اعصِب جُرحها، بارك الله عليكم أهل بيت، لمقام أمك خيرٌ من مقام وفلان -رحمكم الله أهل البيت- فالتفت إلي أمي، وقالت: ادعُ الله لنا أن نرافقَك في الجنة يا رسول الله، فقال: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة، فقالت أمي: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا".

وانتهت المعركة وعادت أم عمارة من "أحد" بجرحها الغائر، وهذه الدعوة التي دعا لها بها الرسول الأعظم ﷺ وظلت تداوي جراحاتها هذه سنة كاملة، وكان رسول الله ﷺ يتفقد أخبارها، ويطمئن على أحوالها، وكان النبي ﷺقلما يذكر يوم "أُحد" يقول: "ما التفت يوم أُحد يمينًا ولا شمالًا إلا ورأيتُ أم عمارة تقاتل دُوني".

يا أيتها الأخت الكريمة، يا للروعة والدهشة! سيدة من القوارير تقف في جفن الموت؛ حيث يفر الشجعان، وتجود بالنفس، حيث يضنُ اَلْجَوَاد، ثم تنزل بها الجراح والآلام، فلا يزيدها ذلك إلا إيمانًا، ورضىً وثباتًا واطمئنانًا، اللهم إن هذا أثر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، ويشع نوره على النفوس، فتستهين بالآلام في سبيل الغاية الشريفة، وتستعذب العذاب في سبيل رضا الله ورسوله، فللهِ دَرُّكِ يا أم عمارة! لقد برأتِ جراحكِ، وذهبت آلامُكِ؛ ولكن بقيت ذكراكِ منقوشة على صفحات القلوب.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، ما قامت به أم عمارة "نسيبة بنت كعب" رضي الله عنها من التحول عن أداء مهامها، كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين، وأُفرد النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فرأت أم عمارة أن واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخدمات المساعدة، فباشرَت قتال المشركين؛ دفاعًا عن رسول الله ﷺ وحصل منها ما ذكر في هذه الموقف من التصدي للأعداء، والمشاركة في رد هجماتهم.

الروض الأنف-الطبقات الكبرى لابن سعد-سير أعلام النبلاء-سيرة ابن هشام-

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-عيون الأثر لابن سيد الناس-البداية والنهاية-تاريخ الطبري-در السحابة في مناقب القرابة والصحابة-الدر المنثور في التفسير بالمأثور-تقريب التهذيب-تهذيب الكمال-تلقيح فهوم الأثر-ربيع الأبرار-ذيول تاريخ الطبري-إنارة الدجي في مغازي خير الورى.

***

# بطولة نادرة

إنَّ مَن عرف الحق هانت لديه التضحيات، والبذل، والفداء، فيتعالى على متع الحياة الدنيا، وعلى زخارفها؛ لأن ينتظر متعة أَبَدِيَّة سرمدية في جنات ونَهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فَيُقَدَّم مراد ربه على كل ما يلذ لعينه، وما يلذ لقلبه، فيسعد في دنياه، ويفوز بالجنان في أُخراه، ولهذا عرف الجيل الرباني الحق، فهانت عليهم كل لذائذ الحياة، وقدموا كل ما يملكون في سبيل ربهم بنفس راضية، وقلوب مطمئنة بالفوز برضوانه.

نحن هنا يطيب لنا أن نتكلم عن امرأة من الصحابيات كان لها في البطولة شأنٌ عظيمٌ، صحيح أننا لا نجد اسمها في لائحة الشهيرات؛ لكنها أظهرت في الحرب شجاعة نادرة، أذهلت قواد الحروب، وفرسان الوغى، وأضحت فيها مضرب الأمثال في الصبر والمصابرة، نحن نلتقي بطلة فتوح أرمينيا، الصحابية الجليلة: أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية، وهي زوجة القائد الهمام، والصحابي البطل: حبيب بن مسلمة الفهري -رضي الله عنهما-.

أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية ﵂ نجمة سطعت في سماء الجهاد، بذلت حياتها وأوقاتها في سبيل نُصرة هذا الدين العظيم، ففي مدرسة النبوة تخرجت هذه الصحابية المقاتلة الفدائية، إنها امرأة قدمت أروع لوحات الجهاد في أجمل صورة، وذلك ضمن بطولة فريدة في سماء لم يُعرف لها في تاريخ نظير، ولعلكِ أيتها الأخت الكريمة قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذه الفارسة البطلة، والوقوف عند عجائبها، فإليكم شيءٌ منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا؛ لنعيش سَوِيًّا في هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

عام ٣١هجريًا أرسل أمير المؤمنين: عثمان بن عفان ﵁ جيشًا، بقيادة حبيب بن

مسلمة الفهري؛ لفتح أرمينيا، والتقى جيش المسلمين الذي لا يتجاوز الثمانية آلافٍ مع جيش الروم، الذي تجاوز الثمانين ألفًا عند منطقة "قليقلا"، وقبل أن تبدأ المعركة وقف حبيب بن مسلمة يحمس الجيش، ويحثهم على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ويطلب منهم دك معاقل الروم.

وفي أثناء حديثه خرجت له زوجته أم عبيد الله بنت يزيد ﵄ وقد ارتدَت ملابس الحرب، فقد كانت جنديه ضمن هذا الجيش، وكانت دائمًا تجاهد في صفوف المسلمين الأولى.

وحين كان حبيب يحمس جند الله، إذ بزوجته تسأله سؤالًا عجيبًا، فقد قالت له: يا حبيب، أين ألقاك إذا حمى الوطيس، وماجت الصفوف؟ فأجابها قائلًا: تجدينى -بإذن الله- في خيمة الموريان: قائد الروم، أو في الجنة.

بدأت المعركة الطاحنة، وأبلى المسلمون فيها بلاءً حسنًا، وفي الليل حمى وطيس المعركة أكثر، وقاتل حبيب ومَن معه ببسالة منقطعة النظير، وافترق حبيب عن زوجته، وحقق انتصارًا عظيمًا على جموع الروم.

ثم انطلق ﵁ مسرعًا نحو خيمة قائد الروم؛ ليعلن النصر منها، وينتظر زوجته كما وعدها، وما إن وصل حبيب إلى الخيمة حتى كانت المفاجأة؛ إذ وجد فارسًا مُلثمًا، قد سبقه إلى الخيمة، وعندما اقترب منه وكشف عنه اللثام، إذ بها زوجته قد سبقته، قبل أن يسبقها، وانتظرته قبل أن ينتظرها.

يا أيها القارئ الكريم، لقد عبَر حبيب بن مسلمة ﵁ عن النصر على الأعداء بالوصول إلى خيمة الموريان: قائد الروم، ظنًا أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء، وقد جعل لزوجته موعدًا في الدنيا إن انتصروا على الأعداء؛ وهو اللقاء في مقر قيادة جيش الأعداء، وجعل لها موعدًا في الآخرة إن ظفر بالشهادة، وهو اللقاء في الجنة، وهذا دليل واضح على أن من صفات الجيل الرباني أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسنيين: إما النصر على الأعداء، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كانت أم عبيد الله امرأة حبيب بن مسلمة ﷺمثالًا للمرأة المؤمنة الشاعِرة بمسئوليتها أمام زوجها، وأمام واجبها نحو أمتها، فقد شاركت زوجها في مشاعره وأفكاره، وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته: وهو جهاد الأعداء، ولا شك أن سؤالها عن موعد اللقاء، وجواب حبيب لها، يدلان على مشاركة سابقة في تصور طموحاته، ومراحل عمله، وإذا كانت المرأة ذات كفاءة، وشاركت زوجها في المشورة، والتشجيع والمؤازرة؛ فإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًا؛ لأنه سيعيش في نطاق عمله ليلًا ونهارًا.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إذا كانت المرأة وهي التي تتصف عادة باللين، والسلامة والبعد عن المخاطر، وإذا كانت هي التي تدفع بزوجها كهذه المرأة إلى اقتحام الأهوال، والدخول في المغامرات؛ فإنها امرأة عظيمة حَقًّا، ولا شكَ أن زوجها سيكون مندفعًا لذلك بطاقته المعتادة، نُضيف لها ما ناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي ينتظر منه نقيض ذلك.

ولقد كانت هذه المرأة عظيمة حَقًّا حينما لم تكتفي بتشجيع زوجها، ودفعه إلى بذل كل ما يملك من جهد في النجاح؛ بل غامرت بروحها حتى سبقت زوجها إلى خيمة القائد، وهكذا يجب أن تكون المرأة المسلمة المؤمنة، فهي تقف مع زوجها في تحقيق أحلامه، بل يجب أن تشاركه في ذلك إن قدرت على ذلك.

تاريخ دمشق لابن عساكر-فتوح البلدان للبلاذري-تاريخ الطبري-التاريخ الإسلامي مواقف وعبر-سير أعلام النبلاء-ذيل تاريخ دمشق-المحبر لابن حبيب-الكامل في التاريخ-شذرات الذهب في أخبار من ذهب-كتاب العبر في خبر من عبر-در السحابة في مناقب القرابة والصحابة-تاريخ اليعقوبي-الأخبار الطوال-تقريب التهذيب.

***

# صاحبة الشاة المباركة

لم تكن هذه المرأة التي نحن بصدد سرد سيرتها العطرة من النساء ذات الشهرة في الجاهلية، فلقد كانت امرأة بدوية بسيطة، لا تتجاوز شهرتها خيمتها، أو أهلها وعشيرتها، الذين يعيشون حولها، لكنها غدت إحدى شهيرات الدنيا؛ لَمَّا نزل رسول الله ﷺ ضيفًا عليها في هجرته المباركة إلى المدينة المنورة.

حديثنا في هذه الصفحات عن امرأة احتلت مكانة عالية، ومنزلة سامقة في قلب الرسول الأعظم ﷺ وفي قلوب الصحابة، وبخاصة الخلفاء الراشدون -رضيَ الله عنهم أجمعين- فقد كانوا جميعًا يعرفون قدرها ومنزلها، وموقفها مع النبي ﷺ في رحلة الهجرة المباركة. نحن على موعد مع المرأة السعيدة، صاحبة الشاة المباركة، إنها ساحرة البيان الصحابية الجليلة: أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية رضي الله عنها.

لما نزل رسول الله ﷺ بأم معبد رضي الله عنها حتى بدأت شهرتها تلمع في سماء النساء، فقد كانت إضافةً إلى كرمها وجودها؛ فصحية اللسان، سجلت أجمل وصف لرسول ﷺ لا يزال من أهم المراجع المحمودة في الشمائل المحمدية.

ونحن نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع قصة الحبيب -صلى الله عليه- وسلم مع أم معبد الخزاعية التي وصفت الرسول الكريم ﷺ وصفًا يعجز البُلغاء، وأهل الفصاحة، أن يأتوا بمثل هذا الوصف البليغ، فتعالوا بنا؛ لنطوف بين بستان السيرة، لنقطف زهرة زكية جديدة من بستان هذه الصحابية الجليلة.

لما أسرفت قريش في عداوة الرسالة المحمدية، ودبرت وخططت لقتل صاحب الرسالة: النبي ﷺ نزل الأمين جبريل وآذنه بمؤامرة قريش، وبإذن ربه له بالهجرة إلى المدينة المنورة، هنا بدأ النبي ﷺ من فوره ينفذ أمر ربه، وارتحل النبي ﷺ ومعه أبو بكر الصديق، ومعهما عامر بن فهيرة: مولى الصديق رضي الله عنهما يخدمهما، وانطلق الركب

العظيم إلى غايته الكبرى، والمطايا تسرع بهم تارة، وتبطئ بهم أخرى، وهم ممعنون في غمار الصحراء المُترامية.

وكانوا كلما أرهقهم السَيرُ نزلوا منزلًا، فأخذوا قسطًا من الراحة، وتلمسوا من الحيَ المقيمين بقربه، عسى أن يكون لديهم من طعامٌ، أو شرابٌ؛ حتى مرُّوا في طريقهم بخيمة أم معبد الخزاعية ﵂.

وكان منزلها بقُديد -موضع قرب مكة- وهي أعرابية كريمة، تبدو على ملامحها علامات القوة، والصبر، والجلد، وكانت تجلس أمام خيمتها مجلس الكرماء، تُطعم وتسقي من يمرُّ بها من المسافرين والسيَّارة، فلما نزلوا عندها سألوها لحمًا وتمرًا، يشترونه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا، وقالت لهم وهي تبدي عذرها الممزوج بالأسف: "والله لو كان عندنا شيءٌ ما أعوزناكم القرى -أي: الضيافة- وما كنتم إذًا بحاجة إلى أن تسألوا شيئًا، أو تدفعوا ثمنًا".

وكانت أيام جدبٍ وقحط، واحتبس الغيث، فجدبت الأرض، ونضبت الزروع، وجفت الضروع، وكانت البادية شهباء في قحط شديد، والناس مُرْملُون مُستنُون -أي: نفد زادهم-.

نظر رسول الله ﷺ إلى شاة جانب الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: هذه شاة خلفها الجهد -الضعف- عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا، فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده على ضرعها، وذكر اسم الله ودعا، وقال: اللهم بارك في شاتها.

فتفاجت -أي: فتحت ما بين أرجلها- ودرت باللبن، فدعا بإناء يُربض الرهط -يشبع الجماعة- فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب ﷺ آخرهم، وقال: ساقي القوم آخرهم شُربًا، ثم حلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها، وقد فازت أم معبد بدعوة مستجابة

بالبركة من النبي ﷺ.

وما هو إلا قليلٌ حتى جاء زوجها: أبو معبد، يسوق أعنزًا عجافًا، هزالًا ضعافًا، يتمايلن من شدة ضعفهن، فلما رأى اللبن عند أم معبد، عجب! وقال: من أين لكم هذا؛ والشاة عازب ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مرَ بنا رجلٌ مبارك، كان من حديثه كذا وكذا، ومن حاله كذا وكذا، قال أبو معبد: إني والله أراه صاحب قريش الذي يُطلب. ثم قال: صفيه لي يا أم معبد، فجعلت أم معبد تصفُ له ما بهرها منه، ووصفته بصفاته الرائعة بكلمات رائعةٍ، آسرةٍ ساحرةٍ، كأن السامع ينظرُ إليه وهو أمامه، وقالت تصفه ﷺ:

ظاهره الوضاءة، أبلجُ الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثُجلة -أي: ضخامة البطن- ولم تُزر به صُعلة، ووسيم قسيم، في عينيه دعجٌ -سواد العين- وفي أشفاره وطفٌ -أي: في شعر أجفانه طول- وفي صوته صحلٌ، وفي عُنُقه سطعٌ، أحور، أكحل، أزجٌ، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت، علاهُ الوقار، وإن تكلم، علاه البهاء، أجمل الناس، وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حُلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تقتحمه عين من قصر، ولا تشنؤُه من طول، غصن بين غصنين؛ فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال، استمعوا لقوله، وإذا أمر، تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مُفند.

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش، الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلًا، وأصبح صوته بمكة عاليًا يسمعونه، ولا يرون من القائل:

**جَـزى اللـه ربُّ الناسِ خيـر جزائِهِ رفيقيـن حـلا خيمتـي أُمِّ معبـدِ**

**همـا نـزلا بالبـرِ وارتحـلا بـهِ وأفلـحَ مَـن أمسـى رفيـقَ محمـدِ**

فيا لقصي ما زوى الله عنكُم بهِ ... من فعالٍ لا تُجازى وسؤددِ
ليَهن بني كعبٍ مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ
سَلوا أختَكم عن شاتِها وإنائِها ... فإنكم إن تسألوا الشاةَ تشهدِ

ولقد لامسَت نسمات الإيمان قلب أم معبد منذُ اللحظات الأولى، التي سمعت وشاهدت فيها النبي ﷺ فعندما مر بها فِتيان قريش، وسألوها عن رسول الله ﷺ وكانوا يلاحقونه، فأشفقت عليه منهم، فتعاجمت عليهم، وقالت لهم: إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا.

في هذا الموقف حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ إذ مسح على ضرع تلك الشاة الخالية من اللبن فدرَت حالًا، وشربوا جميعًا من حليبها، وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة المُباركة، وفي غيرها، وهذا الموقف أيضًا يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ وهي ما حصل لغنم تلك المرأة المُباركة من البركة والنماء، حتى سمَت بفضل النبي ﷺ ولقد أكرم النبي ﷺ أم معبد بعد ذلك، حين جاءت إلى المدينة، ورفع قدرها.

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير -دلائل النبوة للبيهقي-الاستيعاب في معرفة الأصحاب-عيون الأثر لابن سيد الناس-تقريب التهذيب-تاريخ ابن أبي زرعة-الطبقات الكبرى لابن سعد-مرآة الجنان وعبرة اليقظان-المصبح المضي-المحبر لابن حبيب-سبل الهدى والرشاد-تهذيب الأسماء واللغات-إمتاع الأسماع.

***

# ابنة شهيد الأنصار

ما إن طلَّ فجر الإسلام الباسم على الدنيا، وعمَّ ضياؤه في سماء الكون؛ حتى سارع أهل المدينة إليه، فبايع خِيرةً من رجالها وأشرافها النبي ﷺ وكان من بين المبايعين: سعد بن الربيع، أحد سادات الخزرج، المعروفين بالإقدام، والبسالة، والعقل. وحديثنا في هذه الورقات عن امرأة من نساء الأنصار، تأتي لتأخذ مكانتها في عالم النساء، ممَن خلفنَ آثارًا وضيئة في تاريخ النساء، إنها أم سعد جميلة بنت سعد بن الربيع -رضي الله عنهما-.

في يومٍ من أيام خلافة الصدِّيق: أبو بكر رضي الله عنه دخلت جميلة بنت سعد بن الربيع رضي الله عنها على الصديق، فألقى لها رداءه؛ لتجلس عليه، فدخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأله عنها، وقال: مَن هذه يا خليفة رسول الله؟ فقال الصديق رضي الله عنه: هذه ابنة من هو خير مني ومنك إلا رسول الله ﷺ؟ فقال الفاروق: ومن يا خليفة رسول الله؟ قال: رجل تبوأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت في هذه الدنيا، هذه ابنة سعد بن الربيع، وما دُمنا قد ذكرنا سعد بن الربيع رضي الله عنه فتعالوا بنا؛ لنتعايش مع قصة هذا الأمير الشهيد، كما جاءت في كتب السير، والأحاديث والتراجم:

كان سعد بن الربيع رضي الله عنه أحد أصحاب البيعة عند العقبة، وأحد النقباء الاثني عشر، وهم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وقد قال رسول الله ﷺ للنقباء: "أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم". هنا اعترض أصغر شباب الأنصار في البيعة وهو "العباس بن نضلة" رضي الله عنه قائلًا:

يا معشر الأوس والخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم المصيبة، وأشرافكم القتل؛ أسلمتموه، فالآنَ هو والله إن فعلتم خزي

الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له، بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف؛ فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله! إن نحن وفَّينا؟ قال ﷺ: الجنة.

ويشاء الله أن يكون لأسرة سعد بن الربيع المؤمنة سهمٌ وافرٌ في هذا الشرف، فقد عرض الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة -وهو ابن عم سعد بن الربيع رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قال: فما لنا إن فعلنا ذلك؟! قال: الجنة.

فما تمالك سعد بن الربيع نفسه، وقد سمع الجنة مِن فَم رسول الله ﷺ أن صاح مبتهجًا: ربح البيع، ربح البيع، والله لا نقيل، ولا نستقيل، فنزل قول رب العزة -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ (التوبة: ١١١)، فضرب النقباء على يد رسول الله ﷺ مبايعين له على ما اشترط لنفسه، ولربه.

وقد تعامل سعد بن الربيع مع بيعته بصدق، فلا تسألنَّ عن إخلاصه لبيعته رضي الله عنه فمنذُ ذلك اليوم لم يتوانَ عن خدماته للإسلام وأهله، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله؛ وبكل ما يملك، وشهد بدرًا، فأبلى بلاءً عظيمًا، وشهد جميع السرايا حتى جاءت غزوة أحد، فقاتل سعد قتالًا شديدًا؛ ليظفر بتلك الأمنية، التي كانت تشغل قلوب الصحابة جميعًا، ألَا وهي الشهادة في سبيل الله.

وتراءت الجنة لسعد بن الربيع مزدانة متألقة، تفعمه بشذاها، وتهيأ لدخولها، فانخلع من الدنيا، وتجرد من أسبابها، فألقى درعه، وكسر غمد سيفه، ورمى بكل ما يثقله، وطرح ما يعيقه، وخرَّ كالشهب على جموع المشركين، فما أهوى على أحد إلا غادره موليًا أو صريعًا، فلما رأى المشركون ضراوة صنيع هذا البطل المغامر فيهم، وفعله بهم ما يصد له أحد إلا أزاله، اجتمعوا له، واحتوشوه، فأشرعت أرماحهم ونبالهم المجنونة نحوه، وفُوقت سهامهم صوبه، وهو مندفع، لا يبالي ولا يزالون به، وما يزال بهم، حتى

شخبت جراحه، فأنهكته، وهو يتشحط في دمه، ويترنح حتى هوى.

أجل، هوى سعد بن الربيع، وهو يدفع ثمن الجنة من دمه؛ ليتخذه الله شهيدًا بين يدي رسول الله ﷺ هوى البطل، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، هوى البطل بعد أن صدق الله ورسوله، ووافي بالعهود والعقود.

وانجلت المعركة الامتحان الصعب، والاختبار الدقيق بكل ما حفلت به، وما خلفته، فسقط مَن سقط، وفاز من فاز، لقد سقط المنافقون والمرجفون، فكشفهم الله وأخزاهم، فبعدًا لهم وسحقًا، وعفا الله عمن تلكأ، وضعف وتأخر، وسبق الفريق الفائز سعد بن الربيع وإخوانه، ممن اتخذهم الله شهداء.

وما إن فرغ الناس من القتال العنيف، كان أول شيء فعله الرسول القائد ﷺ أنه قال: ماذا فعل سعد بن الربيع؟ ثم ما لبث أن قال: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ فلما رأى الصحابة رضي الله عنهم أن النبي ﷺ لهفٌ على سعد وخبره، قام أُبي بن كعب رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول أنظر لك ما فعل سعد بن الربيع.

فقام أُبي، وجعل يطوف بين القتلى، فبعد لأْي من عرفه، ووصل أُبيّ بن كعب إليه، والملائكة تتهيأ؛ لتزفه إلى الفردوس الأعلى، وهو يرى أطيافها الحبيبة مُقبلة نحوه، ساعية إليه، وهو في نشوة عظيمة، وسرور لا يُوصف، فوقف أُبي بن كعب عليه، وراح ينادي بصوتٍ شجي، تخنقه العَبرات: يا سعد بن الربيع، يا سعد بن الربيع، لكنَّ سعدًا كان في شُغل عنه، وعن دنياه، إنه الآن في حالة من النعيم والمسرة، فوق إحساس البشر، حالة من السعادة والحبور، لا يدركه أُبي بن كعب، ولا سواه ممن على ظهر الأرض، وعلام يناديه؟ وماذا يبتغي منه؟

وما يسره أن يرجع إليهم صحيحًا مُعافىً، وما في الدنيا شيء أحب إليه مما هو فيه الآنَ، وما جنات الدنيا، ونعيمها، وثمارها، ولذاتها، بشيء في جنب ما يعاين، بيدَ أن أُبيًا ناداه الثالثة فقال: يا ابن الربيع، أنا أبي بن كعب رسول رسول الله إليك، إن رسول الله ﷺأمرني أن أنظر خبرك، وقال لي: أقرئه مني السلام، وقل له: كيف تجدك؟

فما إن سمع سعد ذكر رسول الله ﷺ وتحيته، والسؤال عنه، حتى تنفس كما يتنفس الصبح، ثم قال وقد أشرق وجهه، وعلاه الفرح والحبور: وإن رسول الله لحيّ؟ قال أُبي: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثني عشر سنانًا، فاضطرب سرورًا لحياة رسول الله، ولو استطاع قيامًا لقام، بلى، قد انتفض سعد مبتهجًا، وكيف لا؟ وقد سمع المحب ذكر حبيبه، وها هو يسأل عنه، ثم فتح الشهيد السعيد عينين كليلتين مخضبتين بمسك دمه، ثم انفجرت شفتاه؛ لتعبر بصدق وإيمان عن سعادة غامرة، ولتخرج من الدنيا، وقد صدقت، ووفت بما عاهدت عليه الله بنصيحة مخلصة فقال سعد:

أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع وجد ريح الجنة، ويقول لك: جزاك الله خيرًا ما جزى نبيًا عن أمته، وقل له: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، كلها أجافتني -أي: وصلت إلى جوفه- وأقرئ على قومي الأنصار السلام، وقل لهم: يقول لكم سعد بن الربيع: الله الله! وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خُلص إلى نبيكم، وفيكم عينٌ تطرف.

وخفت الصوت، وسكنت الخفقات، فوجم أُبيّ بن كعب ﷺ وقتًا، ثم انحنى على سعد يُقبله، واختلطت الدموع بالدماء، ثم نهض، فترحم عليه، واستغفر له، ومضى مسرعًا إلى رسول الله ﷺ ليؤدي رسالة الصدق الحقة من الحبيب إلى حبيبه، يقول أُبي: لمَّا سمع رسول الله ﷺمقالة سعد، استقبل القبلة رافعًا يديه يقول: اللهم ألقِ سعد بن الربيع وأنت عنه راضٍ،، ثم قال ﷺ: رحمه الله، ونصح لله ولرسوله حيًا وميتًا.

كان يجب قبل أن نخوض في سيرة جميلة بنت الشهيد النقيب سعد أن نتعايش قليلًا مع سيرة أبيها هذا الرجل العظيم.

لما اِستشهد سعد بن الربيع في "أُحد" كانت أمها حاملًا بها، ووضعتها بعد عدة أشهر من استشهاد سعد ﷺ نشأت جميلة يتيمة في حجر أبي بكر الصديق ﷺ واقتبست من أخلاقه الكريمة، ومن خصاله الحسان، ومن فصاحته ما رفعها مكانًا عليًا في سماء المكرمات، وجميلة هذه هي التي اعترضت النبي ﷺ فقال لها: من أنتِ؟ قالت: ابنة

الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع، فتعالوا بنا؛ لنتعايش قليلًا مع أم سعد جميلة بنت سعد ﷺ.

في شأن جميلة ﷺ وأختها وأُمها، أنزل الله ﷻ قرآنًا ودستورًا للناس، وينص هذا الدستور القرآني هذا على إبطال عادة جاهلية مقيتة، كانت تهضم حقوق المرأة، ولا تعترف بمكانتها، ألا وهي عدم توريث الإناث، وهي سنة من سنن العرب، ذلك أن النساء لا يؤول إليهنَّ من ميراث الرجل شيءٌ، فجاء القرآن الكريم، وأحلَ المرأة المكانة التي تستحقُ، وأنقذها من شرك الجاهلية العمياء.

ولنتابع ذلك، فقد روي أنه لما استشهد سعد بن الربيع ﷺ وترك ابنتين، وكان المسلمون يتوارثون على ما كان في الجاهلية؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يجعلون الميراث كله للذكور دون الإناث، حتى اِستشهد سعد بن الربيع ﷺ فأخذ عمهم الميراث، ولم تنزل الفرائض بعد، كانت عمرة زوج سعد امرأة حازمة صابرة، فساءها ما صنع أخو زوجها، وفزعت إلى رسول الله ﷺ تشكو ما حدث؛ لينطق بحكم الله ﷻ وينقذها، وابنتيها من ظلم الجاهلية، فكان ذلك.

فقد روي جابر بن عبد الله ﷺ إذ قال: جاءت امرأة سعد ابن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك يوم أُحد شهيدًا، وإنَّ عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالًا، ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال الحبيب ﷺ: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعطِ الثلثين لابنتي سعد، وأمهما الثُمن، وما بقي فهو لك.

وعند ذلك كبرت امرأة سعد، وسُرت بحكم الله ﷻ الذي نزل بالفصل، وأمر بالعدل بين الناس، وآية الميراث التي نزلت هي قول الحق -سبحانه وتعالى- في سورة النساء: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ

وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (النساء: ١١).

دارت الأيام بجميلة بنت سعد حتى بغلت مبلغ النساء، فتزوجها شيخ المقرئين، وكاتب الوحي، وأحد الأذكياء النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ وقد تأثرت جميلة به، واقتبست منه، ومن علمه، وفقه شيئًا كثيرًا جعلها في مقدمة العالمات الفقيهات من نسوة الأنصار ﷺ.

وكان من ثمرة هذا الزواج الميمون المُبارك: أن وُلدت لزيدٍ عددًا من الأبناء النجباء، الذين أتحفوا التاريخ بعلمهم الناصع، وعلمهم الغزير المعطاء، وقد تكفل بذكر أسمائهم الإمام الذهبي ﷺ في تاريخه فقال: وولد لزيدٍ: خارجة، وسليمان، ويَحيى، وعمارة، وإسماعيل، وأسعد، وعبادة، وإسحاق، وحسنة، وعمرة، وأم إسحاق، وأم كلثوم، وأم هؤلاء هي: أم سعد ابنة سعد بن الربيع -رضي الله عنهم أجمعين-.

ومن مناقبها وكراماتها، ما روى حفيدها إبراهيم بن يحيى عنها فقال: سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول: دخل عليَّ زيد بن ثابت في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ فقال: إن كنتِ تريدين أن تكلمي في ميراثك من أبيك، فتكلمي؛ فإن أمير المؤمنين عمر قد ورَث اليوم الحمل، قال: وكان أبوها قُتل شهيدًا يوم أُحد، وهي جنين في بطن أمها، فقالت: ما كنت لأطلبَ من أختي شيئًا.

ويبدو من الرواية أن أخت جميلة قد أخذت نصيبها من ميراثها إلا أنَّ جميلة قد جادت بنصيبها، وجعلته لأختها، وهذا من تمام الكرم، والجود، والإيثار، بل ومن محاسن الجود والفضيلة.

ولأم سعد ﷺ مرويات مهمة عن أحداث السيرة النبوية في العهد المكيّ، وكذلك عن المغازي، وهي من َروت قصة أم عمارة نسيبة بنت كعب، وبطولاتها يوم أُحد، فقد قالت: دخلت يومًا على أم عمارة، فقلت لها: يا خالة، أخبرني خبرك يوم أُحد؟

فقالت: خرجتُ أول النهار؛ أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى

رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ فقمتُ أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عنه بالقوس، حتى خلصت الجراح إليَّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جُرحًا أجوف له غورٌ، فقلت لها: مَن أصابك بهذا يا خالتي؟ قالت أم عمارة: ابن قميئة، لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، لا أنجو إن نجا، فاعترضت له أنا، ومصعب بن عمير رضي الله عنه وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتهُ على تلك الضربات، لكن عدو الله كان عليه درعان.

وقد عاشت جميلة مع زوجها زيد بن ثابت رضي الله عنهما حياة عبادة، وجدٍ واجتهاد إلى أن لقيا الله ﷻ فقد تُوفي زيد سنة ٤٥ هجرية. أمَّا جميلة فلا نملك لها سندًا وثيقًا فيما لدينا من المراجع يشير إلى وفاتها، لكنَّ أخبارها تدل على أنها عاشت زمنًا بعد وفاة زوجها.

مسند الإمام أحمد-سنن أبو داود-سنن الترمذي-سنن ابن ماجه-البيان والتبيين-حياة الصحابة-تاريخ مدينة دمشق-السيرة من خلال المصادر الأصلية-صحيح السيرة-نساء من زمن النبوة-السيرة لابن كثير-المحبر لابن حبيب-البداية والنهاية-أنساب الأشراف-الإصابة في تمييز الصحابة-دلائل النبوة للأصبهاني-سير أعلام النبلاء-الاستبصار في نسب الأنصار-السيرة الحلبية

***

# أُمُّ صاحب السر

نهج ابن هذه الأم منهج الزهادة، والتقوى والعبادة، وكان من نجباء الصحابة، عُرف بصاحب السر النبوي، ورفيقه في الجنة، وكذلك كان رجل المخابرات الأول في العصر النبوي الذهبي، وصاحب مهمة الاستطلاع الخطيرة يوم الخندق، كان من أعيان الصحابة الكبراء، وممَن تمنى الفاروق عمر أن يكون عنده بيتٌ مملوء بالرجال مثله، كما أنَّ زوج هذه المرأة من شيوخ الصحابة الشهداء، دخل الإيمان قلب هذه المرأة المخلصة، فعملت بمقتضاه، وكانت هي وزوجها وأولادها من إكرام الصحابة، حديثنا في هذه الورقات عن "الرباب بنت كعب بن عدي الأشهلية الأنصارية أم حذيفة بن اليمان" -رضي الله عنهم أجمعين-.

تزوجت الرباب ﵂ في مطلع الشباب بسيد من سادات يثرب الأكابر؛ وهو اليمان حسيل بن جابر العبسي، فولدت له: حذيفة، وسعدًا، وصفوان، ومُدلجًا، وابنة اسمُها ليلى، يقول النووي: كان لحذيفة أخٌ اسمه صفوان، وأختان: أم سلمة، وفاطمة بنو اليمان ﵃.

وعندما بدأت خيوط الفجر القادم من مكة إلى المدينة، أخذ يبدد دياجير الظلام، أسلمت الرباب وزوجها وأولادها جميعًا في طلائع السابقين، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بايعت الرباب بيعة النساء، فكانت من الفائزات، ونظمت في عقد الصحابيات الطاهرات، وكانت صالحة مُباركة خيّرة، وكانت بيعة الإسلام مع النساء اللاتي بايعنَه بما في آية "الممتحنة" وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢).

ومنذ هذه البيعة المباركة أخذت الرباب نفسها بالحزم والعزم في تنفيذ هذه المبايعة، ببنودها جميعًا، المنصوص عليها في الآية الكريمة، فكانت تسأل النبي ﷺ عن أحكام دينها، وتستوثق منه في كل ما يعنُ لها في أمور الدنيا والدين.

وقد فازت الرباب ﵂ بنفحاتٍ نديةٍ من النبي ﷺ فزادتها فضًلا، ومكانة عند الصحابيات، فقد كانت ﵂ من الصافيات المصافيات، والصادقات المخلصات للإسلام، ولنبي الإسلام، وربت أولادها وبناتها على مائدة الإخلاص، والوفاء والحب الصادق لله ورسوله، وأولادها كلهم من أصحاب وصحابيات النبي ﷺ ولابنتها فاطمة أخبارٌ جميلةٌ في ثنايا سير الصحابيات الكريمات، فقد كانت من راويات الحديث النبوي، وممَن نقل لنا الهدى النبوي الشريف.

ولها في ذلك أخبارٌ ممتعةٌ مفيدةٌ تدل على عناية أمها الرباب بها، وبسائر أخواتها، وكيف وجهتها؛ لتكون صحابية فاضلة، وعالمة ناقلة للعلم والمعرفة، وقد قدمت هذه الابنة الصحابية ابنة الصحابية، وابنة الصحابي، وأخت الصحابية، وأخت الصحابة، بعض الروايات في كتب الأحاديث، منها ما أخرجه الإمام أحمد ﵀ في مسنده بسنده عن ربعي بن حراش عن فاطمة، قالت: خطبنا النبي ﷺ فقال: يا معشر النساء، أليس لكُنَّ في الفضة ما تحلين، أم أنه ليست منكنَّ امرأة تتحلى ذهبًا تظهره، إلا عُذبت به.

كما أن فاطمة بنت الرباب كانت ممَن يدخل البيت النبوي المُبارك، وكانت تعودُ رسول الله ﷺ إذا مرض، فقد أخرج الإمام أحمد وغيره بسندٍ عن أبي عبيدة ﵀وهو من ثقات في علم الحديث، وهو أحد تلاميذ فاطمة بنت اليمان ﵂عن عمته فاطمة بنت اليمان ﵂قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعوده في نساءٍ، فإذا سقاءٌ معلقٌ نحوه، يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى، قلنا: يا رسول الله ﷺ لو دعوت الله فشفاك، فقال ﷺ: "إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

وزوج الرباب ﵂صحابي كبيرٌ من شيوخ الصحابة يُدعى حسيلٌ، ولقبه اليمان؛ أسلم هو وابنه حذيفة، وبايع بيعة العقبة، ولم يشهد بدرًا؛ لكبر سنه، وفي يوم أُحد قُتل

اليمان يومئذٍ، فقتله المسلمون خطأً من دون أن يعرفوه، وحذيفة يصيح: قتلتم أبي؛ قتلتم أبي، فأجابوه: والله ما عرفناه، وصدقوا، فدعا لهم، وقال: يغفر الله لكم، ودفع له رسول الله ﷺ دية والده، فتصدق بها حذيفة على المسلمين، فزاده ذلك خيرًا، عند النبي ﷺ وعند أمه الرباب ﵂ التي علمت بما فعله ابنها، فسعدت بذلك، وحمدت ربها، لذلك وصبرت واحتسبت مصيبتها عند ربها.

وإن الكلام عن اليمان زوج الرباب ﵂ يعطي المحبين واقعًا مشرقًا عن رسوخ الإيمان في قلب هذا الشيخ الكبير، الذي وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيبًا، فصارت الدنيا لا تساوي عنده شيئًا، إذا ما قيست بما عند ربه في الآخرة، فعند ربه الرضا والرضوان، وجنة الرحمن، هناك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، لم يسمع قول رب العزة -سبحانه- حين يردده نبيه ﷺ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧).

كان اليمان ومعه ثابت بن وقش ﵂شيخين كبيرين، ظَلَّا مع النساء والأطفال يوم أُحد، فقال اليمان لأخيه ثابت: ما تنتظر يا ثابت؟ فوالله ما بقي لواحدٍ منَّا من العمر إلا اليسير، وإنَما نحن موتى، إن لم يكن اليوم، فغدًا، أفلا نأخذ أسيافنا ونلحق بالمجاهدين؛ لعل الله يرزقنا الشهادة؟

فقال له صاحبه ثابت: نِعْمَ ما أشرت به يا أخي! هيا بنا نلحق برسول الله والمجاهدين، وأخذا أسيافهما، ثم خرجا، ودخلا في الناس لا يعلم بهما أحدٌ من المسلمين، فأمَّا ثابت بن وقش توغل في الجيش الوثني، وثار ثورة عارمة حتى تناوشته السيوف المجنونة، وأما اليمان فقتل خَطَأً بأسياف المسلمين، وهم لا يعرفونه.

وبذلك غدت الرباب زوج شهيدٍ، كما أنها تُعدُ أم مجاهد، بطلٍ أبلى أعظم البلاء، فقد حضر ابنها صفوان معركة أُحدٍ مع أبيه وأخيه حذيفة، ونلمحُ بيان وتبيين هذا الأمر عند ابن سعد ﵀ حينما استوعب سيرة حسيل وأولاده، فقال: وأخوه: -أي: حذيفة صفوان بن اليمان- وهو أخوه لأبيه وأمه، وشهد معهم أحدٌ، وأبلى أحسن البلاء

يومئذٍ، كأبيه وأخيه.

وبهذا فإن الصحابية الجلية الرباب قد سجلت في ديوان المكارم صحائفَ كريمة، فكانت ممَن احتسبت الأزواج في عداد الشُهداء والأبناء في صفوف أهل الجهاد، والإيمان والتضحية، فأكرم بها وبعائلتها.

وقد خصتِ الرباب ﵂ بدعاءٍ نبويَ فيه خير الدنيا والآخرة، ولهذا الدعاء قصةٌ منعشةٌ ماتعةٌ، وثقها الإمام الترمذي وغيره من أهل العلم والتاريخ، فقد أدركت هذه الأم شأن الدعاء وفوائده.

فقد علمت الرباب مكانة ابنها حذيفة في المجتمع الإسلامي، وعرفت كذلك مكانة ابنها عند رئيس الدولة الإسلامية محمد ﷺ حتى عُرف بأنه صاحب السر النبوي، وكتم الأسرار، ورجل المخابرات الأول، لذلك كانت تحثه دائمًا على ملازمة الرسول القائد ﷺ في السلم والحرب، وألَّا يبتعدَ أو ينشغلَ عن المجالس النبوية السُّنية، وأن يبادر إلى اغتنام النفحات المحمدية الندية، والمنح المصطفوية.

وذات يوم نادت ابنها حذيفة، وجعلت تسأله: متى عهدك يا حذيفة برسول لله ﷺ؟ فأجابها: والله يا أماه ما لي به عهدٌ منذ كذا وكذا، فراحت تؤنبه وتنال منه، فعلم أنها تريد سعادته وفلاحه، فقال لها -وقد خفض جناح الذُلُ من الرحمة-: دعيني يا أماه؛ فإني آتي النبي ﷺ فأصلي معه صلاة المغرب، ثم أسأله أن يستغفر لي ولكِ، ويدعو لنا جميعًا، فتركته.

سارع حذيفة مصحوبًا بتوجيهات أمه، وصلى المغرب مع النبي ﷺ ثم صلاة العشاء، ولما قضيت الصلاة، انتفل النبي ﷺ وخرج، وعرض له عارض مناجاة وكلَمه، ثم ذهب فتبعه حذيفة، فسمع النبي ﷺ صوته، فقال: من هذا؟ حذيفة؟ قال: نعم يا رسول الله، حذيفة، فقال له: ما حاجتك؟ فأخبره بما كان من أمه الرباب، فقال: غفر الله لك ولأمك، أو قال: اللهم اغفر لحذيفة ولأمه.

وفي روايةٍ أخرى تفصح عن استغفارِ النبي ﷺ لهما، فعن الشعبي عن حذيفة قال:

أتيت النبي ﷺ فصليت معه الظُهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم تبعتُه، وهو يريد أن يدخل بعض حجره، فقام، وأنا خلفه كأنه يكلم أحدًا، ثم قال: من هذا؟ قلت: حذيفة يا رسول الله، قال: أتدري مَن كان معي؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: فإن جبريل جاء يبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال حذيفة: فاستغفر لي ولأمي، فقال: غفر الله لك يا حذيفة، ولأمك.

وهكذا تحققت أمنية الرباب رضي الله عنها وقرت عيناها بدعاء رسول الله ﷺ لها ولابنها، وأي فوزٍ أعظم من المغفرة والنجاة؟!

هنا أزف الوداع بعد أن تعلمنا من قصة الرباب رضي الله عنها كثيرًا عن مكارم الأخلاق، وتعلمنا شيئًا من أصول التربية، وتوجيه الأولاد، لما يصلحهم في دينهم ودنياهم، فقد دارت دورة الحياة بالرباب، وهي محتسبة صابرة على نوائب الدهر، تنشر العلم، وتربي الأبناء والأحفاد، حتى لحقت بربها في عهد الفاروق رضي الله عنه على أرجح الأقوال، فرضي الله عن الرباب، وأبنائها، وزوجها، والصحابة أجمعين.

سنن الترمذي-تهذيب الأسماء واللغات-الوافي بالوفيات-مسند الإمام أحمد-الطبقات الكبرى-الاستيعاب في معرفة الأصحاب-أمهات الصحابة سيرتهن وآثارهن-فتح الباري-المعجم الكبير-تهذيب الكمال-تاريخ مدينة دمشق-أسد الغابة في معرفة الصحابة-تاريخ ابن أبي زرعة-تقريب التهذيب-المغازي للواقدي-الدر في اختصار المغازي والسير-عيون الأثر لابن سيد الناس.

***

# أول شهيدة في الإسلام

أَيَكُونُ من المصادفات الرائعة في التاريخ الإسلامي أن يكون أول مَن دخل الإسلام امرأة؟ وأول من اِستشهد في سبيل الله امرأة، نعم، هذا ما كان؛ فأول خلق الله إسلامًا بدعوة النبي ﷺ: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﵂ وأول من حظي بالشهادة في تاريخ المسلمين امرأة هي: الصحابية الجليلة سمية بنت خياط -أم عمار بن ياسر رضي الله عنهما- نعم، لم تدخل سمية ﵂ معركة قط، فلم يكن قد أذن للمسلمين بالقتال بعد، ولكنها تلك المرأة التي تحملت في سبيل الله الأذى والعذاب، وتحدت الرجال الصناديد الطواغيت، وأبَت أن تترك الإسلام، أو تعود إلى ملة الكفر، أو تحني رأسها إلا لله ﷻ الذي أكرمها، فقبلها أول شهيدة عنده في هذا الدين.

والكلام عن سمية، عليها سحائب الرحمة والرضوان ممُتع آسرٌ، وهو مُؤثر بقدر ما هو شائق، فقد ابتدأت حياتها بامتحان صغير فيما يخصها، ولكنه انتهى بنجاحٍ كبيرٍ، فهي في قائمة الشهداء، الذين هم أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، وأسبغ عليهم من نعمه، وها نحن هنا نتعايش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء، إنها قصة تتكرر كل يوم، إنه الصراع الدائم بين الحق والباطل، بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فتعالَ بنا أيها العاشق لهذا الجيل الرباني؛ لنتعايش قليلًا مع هذه العجوز الصابرة المحتسبة.

بعد قرون طويلة عاشتها البشرية في ظلمات الشرك والجاهلية، إذا بشمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة؛ لتُخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان، لتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة، إلى الجنة التي تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

بدأت رحلة الشهرة مع الأسرة الياسرية عندما أرسل الله رسوله ﷺ بالإسلام،

فأسلم عمار بن ياسر ﷺ وعاد إلى أبويه وأقدامه تسابق الريح؛ يريد أن يأخذ بأيديهما إلى جنة الدنيا، التي ستثمر لهم النعيم في جنة الآخرة، وما إن رآهما عمار حتى عرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن، وإذا بتلك القلوب النقية الطاهرة، تنفتح وتبتهج بسماع كلام الله، وإذا بياسر وسمية ﷺ يشعران بالنور، وهو يضيء أرجاء الكون من حولهما؛ فيقول كل واحدٍ منهما في لحظة واحدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، بذلك ارتفعت ثلاث دعائم متينة للإسلام، وهبَ التاريخ يفتح صفحة ناصعة؛ ليسجل صبر هذه الأسرة، التي لها قدم صدق في الإسلام، والدين ما يزال غضًا نديًا.

انطلقت الأسرة الكريمة المُباركة في رحلتها إلى جنة الرحمن، وعلى الرغم من أن الطريق صعبٌ وشاقٌ وطويلٌ، فإنَّ عاقبته محمودة وغالية. ويكفي أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق، ويستعين بالله -سبحانه وتعالى- حتى يجني ثمار الإيمان في الدنيا والآخرة، وما هي إلا ساعات معدودة، حتى طار خبر إسلامهم إلى بني مخزوم، فاستشاطوا غضبًا، وصبوا على آل ياسر أشد العذاب، فكانوا إذا حميت الظهيرة، يأخذونهم إلى بطحاء مكة، ويُلبسونهم دروع الحديد، ويمنعون عنهم الماء، ويصهرونهم في الشمس المحرقة، ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألوانًا، حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغًا، أعادوا معهم الكرة في اليوم الذي يليه.

ومع ذلك مضت الدعوة في طريقها، وسط هذا الجحود والعناد، يقبل عليها كل من كانت له بقية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو الأمر الذي جعل المشركين يشتدون في تعذيب من آمن منهم بالله وبرسوله، وكفر بالجبت والطاغوت، وكان هذا شأن كل من أظهر إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم، فما كان منهم إلا أن صبروا واحتسبوا ذلك كله عند الله؛ لأنهم يعلمون يقينًا أن سلعة الله غالية، وأنه لا بُد من بذل النفس والنفيس من أجل الفوز بالجنان، وبرضوان الرحيم الرحمن.

كانت سمية بنت خياط ﷺ رائدة الصابرات الصامدات في مطلع النور، ولا يعرف في تاريخ النساء امرأة صبرت كسُمية، فقد جعلت ﷺ الصبر شعارًا لها، ولا ريبَ أن

الصابرين يوفون أجرهم بغير حساب، وللإنسان أن يتصور امرأة وهَنَ العظم منها، وبلغت من الكبر عتيًا، تتحمل عذاب أصحاب القلوب القاسية قسوة الحجارة؛ بل إن من الحجارة لما يتفجر منه الماء، وتتحمل أنواع العنت وإرهابه؛ بسبب إيمانها بالله العزيز الحميد.

فقد ظل المشركون يعذبون سمية، وزوجها ياسر، وابنها عمار ﷺ ومزقت السياط أجسامهما، إلا أن إيمانها الوثيق بالله بات كالجبال الرواسي، لا تؤثر فيه الأمواج، ولا الرياح، وترك هؤلاء الصابرون أحلام المتحاملين تذروها الرياح، وتجعل كبار المشركين يبهتون من صبر هذه الأسرة، التي جاءت؛ لتسجل عليهم سوء أعمالهم، وتسجل لنفسها صبرًا جميلًا محمودًا في غرة التاريخ، فإذا بالحبيب محمد ﷺ يمر عليهم، ويقول لهم: صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة، لقد هبت رياح الجنة على قلوبهم، فأطفأت نار العذاب في غمضة عين، وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة، وبدلًا عن المعاناة التي كانوا يجدونها من أثر التعذيب، أصبحوا يستعذبون العذاب في سبيل الله، ويحلمون بالجنة ليلًا ونهارًا.

ففي الثُلة الأولى من شهداء المؤمنين كان ياسر زوج سمية، إذ اسُتشهد هذا المؤمن الصابر تحت وطأة العذاب بأيدي المشركين، بعد موت زوجته بأيام قليلة، أما بطلة الشهداء سمية، فقد أُعطيت لأبي جهل الفاسق، أعطاها له عمه أبو حذيفة بن المغيرة، وكانت عجوزًا كبيرة كما ذكرنا، ولكنها تحملت ما لا يتحمله الأشداء، وأخذ أبو جهل -أخزاه الله- يفرغ حقده في تعذيبها؛ رجاءً أن تفتن في دينها، لكن أنَّي له ذلك؟ فقد ركنت سمية إلى الصمت، ولم تجبه بحرف واحد، وتحملت العذاب بإصرار واستكبار، واستعلت بعقيدتها على أبي جهل ومن معه، واستخفت بمُر العذاب والبلاء في سبيل الله.

ولمَّا يئس الفاسق من ثباتها، وأثاره صبرها، طعنها بحربة في موطن عفتها، فماتت شهيدة، ورضيت بذلك، أن تسلم روحها لخالقها من أجله، وفي سبيله طائعة مختارة، هنا تتحول المحنة الياسرية إلى منحة ربانية، وكان استشهاد سمية ﷺ في السنة السادسة

أو السابعة من البعثة، وكانت أول شهيدة في الإسلام.

يا أيتها الأخوات الكريمات، للمرأة المسلمة أن تقرأ سيرة هذه الشهيدة الوفية لدينها، فتأخذ منها العظة والعبرة؛ فتصبر على ما أصابها؛ ثقة بالله، وطمعًا في ثوابه، محتسبة أجرها عليه فيما تقوم به جميعًا من عمل صالح وجهد مشكور، وكما أن سمية ﵂ قدوة للنساء، فهي كذلك قدوة للرجال أيضًا؛ فإنهم إذ يرون أن المرأة قد كان هذا حالها في التمسك بعقيدتها، لا تلين ولا تستكين، ولا تستجيب إلا لضميرها الحي، وقلبها اليقظ، ولا تعدل عن الإيمان بالله قيد شعرة، حتى لقيت ربها وهي في أتون العذاب.

كانت سمية ﵂ حين استُشهدت امرأة عجوز فقيرة، متمسكة بالدين الإسلامي، ثابتة عليه لا يزحزحها عنه أحد، وكان إيمانها الراسخ في قلبها هو مصدر ثباتها، وصبرها على احتمال الأذى الذي لاقته على أيدي المشركين.

أيها القارئ الكريم، لك أن تتصور بخيالك هذه المأساة التي كانت تمر بآل ياسر، لا لجُرمٍ ارتكبوه، ولا لإثمٍ اقترفوه، ولكنهم قد نالهم ما نالهم؛ لأنهم قالوا بلسان الحال والمقال: ربنا الله لا إله إلا هو.

أفلا يطيب نفسًا من لم يكن بينه وبين الجنة لا زفرات تخرج من رئتيه، ثم لا تعود، فهنالك عطاء بغير حساب، ورزق بلا نفاد، وحياة بلا موت، هناك الرضا والرضوان، هناك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإصابة في تمييز الصحابة-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء-البداية والنهاية-الطبقات الكبرى لابن سعد-دلائل النبوة للبيهقي-السيرة النبوية لابن كثير-أنساب الأشراف-المستدرك على الصحيحين-تاريخ دمشق-تهذيب الأسماء واللغات-الوافي بالوفيات-وفيات الأعيان-تلقيح فهوم عيون الأثر والتاريخ-سبل الهدى والرشاد .

***

# وتوالَت الأحزان

حديثنا في هذه الورقات عن امرأةٍ رمز من رموز الشجاعة النادرة، والبطولة الفذة، ومثل رائع من أمثلة التضحية والفداء؛ فهي لسان صدق للحق المر، وميزان حق للعدل في أسمى صوره، وأرقى معانيه، كانت حياتها نبعًا للحكمة البليغة، والأسلوب الفصيح المعبر عن خلجات نفسها الزكية، وعظمة أخلاقها السوية، جمعت لنفسها ما لم تجمعه امرأة أخرى، وقامت بأعمال بطولية نادرة، سجلها لها التاريخ في أنصع صفحاته، نحن مرسلو القول في سيرة امرأة من أعظم النساء، إنها "أسماء بنت أبي بكر الصديق" ﷺ فتعالوا بنا؛ لنتعايش مع موقف من أعظم مواقف أسماء.

في تاريخ النساء مواقف حافلة بالبطولات والتضحيات، ولكن بطلتنا أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ تفوق النساء جميعًا في موقفٍ، يشير إلى ذكائها وصبرها، وحسن تصرفها، فإذا نسي التاريخ لأسماء مواقفها كلها، فإنه لن ينسي لها رجاحة عقلها، وشدة حزمها، وقوة إيمانها، وهي تلقى ولدها عبد الله بن الزبير ﷺ اللقاء الأخير، وذلك أن ابنها عبد الله بُويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، ودانت له الحجاز، ومصر، والعراق، وخراسان، وأكثر بلاد الشام، إلا الأردن، ودمشق.

لكنَّ بني أُميَّة ما لبثوا أن سيَّروا لحربه جيشًا لجبًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فدارت بين الفريقين معاركٌ طاحنة أظهر فيها ابن الزبير من ضروب البطولة ما يليق بفارس شجاع مثله، غير أن سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأُحاط به جنود الحجاج وهو في مكة، وأُحجار المنجنيق تنهمر عليه من كل مكان، وبدأ أنصاره ينفضون عنه شيئًا، فشيئًا، وكانت الفرصة سانحة أمامه؛ لطلب الأمان أو الفرار.

ولكن أنَّى له ذلك؟! وقد عرفته البلاد بطولها وعرضها بالشجاعة، والثبات، والإقدام، وأمه أسماء فدائية الإسلام الأُولى، وها هي أمه قد قاربت المائة، وعقلها ما

يزال يشع بالحكمة، وفصل الخطاب، وتوجه إليها يبثها حزنه، ويستشيرها فيما يفعل.

وقُبيل مصرعه بساعات دخل على أُمه أسماء بنت أبي بكر، وكانت عجوزًا فانية قد كف بصرها، فقال: السلام عليك يا أُمي ورحمة الله وبركاته، فقالت: وعليك السلام يا عبد الله، ما الذي أقدمك في هذه الساعة، والصخور التي تقذفها منجنيقات الحجاج على جنودك، تهز دور مكة هزًا؟ قال: يا أُماه، جئت لأستشيرك في أمرٍ، قالت: تستشيرني في ماذا يا عبد الله؟

قال: يا أماه لقد خذلني الناس، وانحازوا عني؛ رهبةً من الحجاج، أو رغبةً بما عنده، حتى أولادي وأهلي انفضوا عني، ولم يبقَ معي إلا نفرٌ قليلٌ من رجالي، وهم مهما عظم جلدهم فلن يصبروا إلا ساعة أو ساعتين، ورُسل بني أمية يفاوضونني على أن يعطوني ما شئت من الدنيا إذا ألقيت السلاح، وبايعت عبد الملك بن مروان، فما ترين؟

فعلا صوتها وقالت: الشأْن شأْنك يا عبد الله، أنت أعلم بنفسك، فإن كنت تعتقد أنك على حق، وتدعو إلى حق، فاصبر، وجالد كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك، وإن كنت أردتَ الدنيا فلبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت رجالك، وإن قلت: إني كنتُ على حق فلمَّا وهنَ أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأْحرار، ولا من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أُحسن ما يقع بك يا بن الزبير، والله لَضربة بالسيف في عزٍ أحبُّ إليَّ من ضربة السوط في ذل.

فقال: يا أماه، ولكني مقتولٌ اليومَ لا محالة.

قالت: ذلك خيرٌ لك من أن تسلم نفسك للحجاج مختارًا، فيلعبْ برأسك غلمان بني أمية،

قال: يا أماه واللهِ لستُ أخشى القتل، وإنما أخاف إن قتلني أهل الشام أن يُمثلوا بي ويصلبوني.

هنا قالت أسماء قولتها الشهيرة، التي جرت مجرى الأْمثال: يا بني، إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، يا بني امضِ على بصيرتك، واستعِن بالله ﷻ.

فأشرقت أسارير وجهه وقال: بوركَت مناقبك الجليلة، فأنا ما جئت إليك في هذه الساعة إلا لأسمع منك ما سمعت، والله يعلم أنني ما وَهنت ولا ضعفت، وهو الشهيد على أنني ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياة فيها، وأنني ما قمتُ بما قمت به حبًا بالدنيا وزينتها، وإنما غضبًا لله أن تُستباح محارمه؛ ولكنني أحببت أن أعلم رأيكِ، فزدتِني بصيرةً مع بصيرتي، وهأنذا ماضٍ إلى ما تحبين، فإذا أنا قتلت فلا تحْزني عليَّ، وسلمي أمركِ لله، قالت: إنما أحزن عليك لو قُتلت في باطل.

قال: يا أماه، كوني على ثقة بأن ابنك لم يتعمد إتيان منكر قَط، ولا عمل بفاحشة قَط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يكن شيءٌ عنده آثر من رضا الله ﷻ لا أقول ذلك؛ تزكيةً لنفسي، فالله أعلم مني بي، وإنَما قلته؛ لأُدخل العزاء على قلبك.

فقالت: الحمد لله الذي جعلك على ما يحب، وأَحب، ثم قالت: اقترب مني يا بُني؛ لأشتمم رائحتك، وألمس جسدك، فقد يكون هذا آخر العهد بك، فأكبَّ عبد الله على يديها ورجليها؛ يوسعهما تقبيلًا، وأطلقت يديها تتلمس جسده، ثم ما لبث أن ردتهما عنه وهي تقول: ما هذا الذي تلبسه يا عبد الله؟ قال: درعي، قالت: ما هذا يا بني لباس من يريد الشهادة.

قال: إنَما لبستها؛ لأُطيب خاطركِ، وأسكن قلبكِ.

قالت: انزعها عنك، فذلك أشد لحميتك، وأقوى لوثبتك، وأخف لحركتك، ولكن البس بدلًا عنها سراويل مضاعفة، حتى إذا صرعت لم تنكشف عورتك.

نزع عبد الله بن الزبير درعه، وشد عليه سراويله، ومضى إلى الحرم؛ لمواصلة القتال وهو يقول: لا تفتري عن الدعاء لي يا أُمي، فرفعت كفيها إلى السماء وهي تقول: اللهم ارحم طول قيامه، وشدة نحيبه في سواد الليل، والناس نيامٌ، اللهم ارحم جوعه، وظمأه في هواجر المدينة، وهو صائم، اللهم ارحم بره بأبيه وأمه، اللهم إني قد سلمته لأمرك، ورضيت بما قضيت له، فأثبني عليه ثواب الصابرين.

لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا كان عبد الله بن الزبير ﷺقد لحق جوار ربه، ولم يمضِ على مصرعه غير بضعة عشر يومًا إلا كانت أمه أسماء بنت أبي بكر ﷺقد لحقت به.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد وقفت بعض النساء مَواقف إيمانية متميزة عبر التاريخ الإنساني، وبعض هذه المواقف يعجز عنها الرجال، ومن هؤلاء كانت الصديقة بنت الصديق أسماء بنت أبي بكر ﷺفقد جادت بنفسها لله ﷻ وآثرت ما عنده، وتخلَّت عن الدنيا، وصبرت على فراق الولد، واستحقت بذلك أسماء بأن يُضرب بها المثال لهذا الموقف الإيماني، فالله ﷻ يثبت أهل الإيمان،،وييسر لهم سبيل الزيادة في إيمانهم؛ رحمةً بهم. نسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه.

تاريخ الطبري-معجم الصحابة-لمنتظم في تاريخ الملوك والأمم-نسب قريش-سير أعلام النبلاء-شذرات الذهب في أخبار من ذهب-المعالم الأثيرة في السنة والسيرة-مختصر تاريخ دمشق-مرآة الجنان وعبرة اليقظان-المحبر لابن حبيب-در السحابة في مناقب القرابة والصحابة-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء-ثمار القلوب-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير

***

# المُمتحنة التي صدقت في هجرتها للّه

إن مَن آثر رضا الله ﷻ ورضا رسوله ﷺ آثره الله على الدنيا بأسرها، فلا بد للمؤمن أن يوثر الله في كل مقام، وأن يحبه ويحب رسوله ﷺأكثر من حبه لولده ووالديه والناس أجمعين، بل أكثر من حبه لنفسه، وها نحن هنا في هذا الموقف، نتعايش بقلوبنا مع صحابية جليلة، عرفت قدر نعمة الإسلام، بل عرفت قدر نفسها في ظل هذا الدين العظيم، فخرجت من دنياها، مُهاجرة إلى الله ورسوله ﷺ لتعلم الكون كله درسًا عظيمًا في التضحية والفداء، من أجل هذا الدين العظيم. حديثنا في هذه الورقات عن الوفية لدينها، وربها، ورسولها: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﵂.

لقد كانت أم كلثوم بنت عقبة ﵂ تبحث عن فجرٍ يبدد ظلام الجاهلية، فلما ظهرت شمس الإسلام في صحراء مكة القاحلة، وجدت أم كلثوم ﵂ أن أصحاب الفطر السليمة، والقلوب التقية النقية يسارعون إلى الدخول في هذا الدين، فما كان منها إلا أن وجدت أقدامها تسابق الريح؛ لتنضم إلى تلك القافلة الإيمانية، فأسلمت لله وبايعت.

على الرغم من أنها نشأت في بيت شديد العداوة للإسلام، وللنبي ﷺ وتحديدًا والدها الذي كان من أكابر مجرمين قريش، وهذا الشقي الذي آذى الرسول الكريم ﷺ كثيرًا قبل هجرته، وانفرد بما لم يفعله أحد، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق ﷺ حتى أنه قد حاول مرة أن يخنقه بيديه، وكان يحشد الجيوش؛ لمحاربة الإسلام، فإنها قطعت عنقه جزاءً وفاقًا يوم بدر الكبرى.

كانت أم كلثوم ﵂ ذات مكارم وفضائل جليلة، منذُ أُشرب الإيمان في قلبها، ومنذُ أن لامست نسمات الإسلام نفسها الصافية، وقد شاء الله -سبحانه وتعالى- أن تكون أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ﵂ هي الوحيدة في بيتها مَن ينشرح صدرها

للإسلام، وتؤمن بالله ورسوله ﷺ حتى إنها كانت من أوائل الذين أسلموا، وواحدة من المسلمين الذين صلُّوا إلى القبلتين.

كانت أم كلثوم ﵂ قد كتمت إسلامها وأخفته، ولكنَّ يومًا بعد آخر كانت مواصلة الحياة في بيتها، والحفاظ على إسلامها، تزداد صعوبة، ويومًا بعد آخر كان خوفها يزداد من إيذاء كفار قريش لها، وإجبارها على ترك دينها، وكانت الهجرة إلى المدينة قد حبست عنها في مكة، ومنعتها من اللحاق بركب المهاجرين، وصبرت على ذلك زمنًا، وهي تتحمل الشدائد في سبيل الله ﷻ بعد أن عُرف أمر إسلامها، حتى اتخذت القرار الصعب، وقررت أن تخرج إلى مدينة رسول الله ﷺ لتنضم إلى المسلمين هناك.

قرار أم كلثوم ﵂ لم يكن صعبًا فقط؛ لأنها فتاة وحيدة تخرج، لتقطع الطريق الطويل من مكة إلى المدينة دون حماية أو ونس، وإنما أيضًا كان صعبًا بسبب الوقت الذي اختارته وقت صلح الحديبية، الذي كان يتضمن شرطًا مُجحفًا للمسلمين، يشترط على الرسول ﷺ أن يرد إليه أي شخص يأتيه مهاجرًا من مكة، حتى ولو كان مسلمًا.

كانت أم كلثوم تعرف بهذا الشرط إلا أنها توكلت على الله، وأصرت على الرحيل، وفى الطريق صادفت قافلة تخص رجلًا من قبيلة خُزاعة، التي دخلت في حلف مع الرسول ﷺ ضد قريش، فاطمأنت، وطلبت منهم أن يصحبوها معهما، وأمنتهم على نفسها، فحفظوا الأمانة، وأحسنوا صحبتها حتى وصلت إلى المدينة المنورة.

وهنا، لنترك الكلام لأم كلثوم ﵂ لتروي لنا قصة هجرتها، وقد قالت: كنت أخرج إلى بادية لنا فيها أهلي، فأقيم فيها ثلاثة، أو أربعة أيامٍ، وهي ناحية التنعيم، ثم أرجع إليهم، فلا ينكرون ذهابي للبادية، حتى أجمعت المسيرَ، فخرجت يومًا من مكة، كأنني أريد البادية، فلما رجع من تبعني، إذ رجل من خزاعة، قال: أين تريدين؟ قلت: ما مسألتك؟ ومن أنت؟ قال: رجل من خزاعة.

فلما ذكر خزاعة اطمأننت إليه، لدخول خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وعقده. فقلت: إني امرأة من قريش، وإني أريد اللحاق برسول الله ﷺ ولا عِلم لي بالطريق،

قال: أنا صاحبكِ، حتى أوردكِ المدينة، ثم جاءني ببعير، فركبته حتى قدمنا المدينة، وكان خير صاحب، فجزاه الله خيرًا.

بعد أن تأخرت أم كلثوم ﵂ عن موعد العودة،، وشعر أهلها بغيابها خرجوا؛ ليبحثوا عنها، فعرفوا أنها هاجرت إلى المدينة، إذ أخبرتهم واحدة من النساء أنها رأتها تسلك الطريق المؤدية إلى المدينة، وحين عرف أهلها بذلك تذكروا فورًا شرط صلح الحديبية، فقالوا: لا ضَير، بيننا وبين محمد عهد وصلح، وليس أحد من الناس بأوفى من محمد، نذهب إليه ونسأله أن يفي بعهدنا.

وخرج أخواها عمارة والوليد للمدينة؛ ليستعيدوا أختهما، بينما كانت أم كلثوم ﵂ في بيت النبوة، دخلت على أم المؤمنين أم سلمة ﵂ وعرفتها بنفسها، وقالت لها: إنها تخشى أن يردها رسول الله ﷺ لأهلها التزامًا بشرط الصلح، ولما دخل الرسول على أم سلمة أخبرته بذلك، فرحب بها فقلت: يا رسول الله، إني فررت إليك بديني، فامنعني، ولا تردني إليهم؛ يفتنوني ويعذبوني، ولا صبر لي على العذاب.

ووصل شقيقاها إلى المدينة في اليوم التالي لوصولها، وطلبوا من رسول الله ﷺ استردادها، إلا أن الله نزل في قرآنه ما ينجيها، إذ تنزلت الآية العاشرة من سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

سبل الهدى والرشاد-زاد المعاد في هدى خير العباد-السيرة الحلبية-شذرات الذهب في أخبار من ذهب-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين-الدر المنثور-ذخائر العقبى-الاستيعاب في معرفة الأصحاب-الإصابة في تمييز الصحابة-دلائل النبوة للبيهقي-الطبقات الكبرى لابن سعد .

***

# فَفِرُّوا إلى اللّه

نقترب في هذه السطور أكثر وأكثر؛ لنستنشق عبير زهرة من بستان العائلة العُمرية، إنها الزكية ابنة الفاروق، الصوَّامة القَوامة، المزرية بنفسها اللوامة، أُمُّ المؤمنين: حفصة بنت عمر ﵄وارثة الصحيفة الجامعة للكتاب، تلكمُ الزهرة التي جمع الله فيها من المكارم والفضائل ما يعجز قلمي أن يصفها، أو يذكرها؛ فأبوها هو فاروق هذه الأمة، وعمها هو زيد بن الخطاب ﵁ بطل معركة اليمامة، وأُمها زينب بنت مظعون، أخت الصحابي الجليل: عثمان بن مظعون ﵄وعمتها فاطمة بنت الخطاب ﵂ إحدى السابقات إلى الإسلام، وأخوها هو الزاهد العابد عبد الله بن عمر ﵄وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع هذه الزهرة.

لما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة، كان عمر ﵁ مازال على الشرك كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يتمني أن يسلم عمر ليكون شوكة في ظهور المشركين فأسلم، ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا في ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف في الله لومة لائم.

وهكذا دخل الإسلام إلى هذا البيت المُبارك؛ ليكون حِصنًا حصينًا، يذود عن الإسلام وأهله، وهكذا عاشت تلك الأسرة العُمرية المُباركة في ظل هذا الدين العظيم، وفي جوار هذا النبي الكريم ﷺ ينهلون من النبع الصافي، ويتعلمون من هدي النبي ﷺ وأخلاقه، وعبادته، وسلوكه، ورحمته.

تقدم أحد السابقين إلى الإسلام، وهو خنيس بن حذافة ﵁ لزوج من حفصة بنت عمر ﵄فتزوجها، وعاشت معه في سعادة غامرةٍ، في رحاب الإسلام، وفي ظل الإيمان والطاعة، وكان خنيس ﵁ قد أسلم قديمًا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم ﵁ وكان إسلامه على يدي الداعية الأول للإسلام: أبو بكر الصدِّيق ﵁.

وحينَ اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ أشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة، فكان خنيس ممَن هاجر هو وزوجته إلى الحبشة ،ثم ما لبث أن عاد إلى مكة، فلما رأى أن الإيذاء والتعذيب يزداد يومًا بعد يوم أخذ زوجه حفصة، وهاجرا إلى المدينة المنورة، بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وهناك عاش الزوجان في رحاب الأنصار، وازدادت سعادتهما بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ولما كانت غزوة بدر التي كتب الله فيها النصر والعزة للفئة المؤمن، كان خنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة المباركة، فقد كان رضي الله عنه يشتهي ويتمني الشهادة من أعماق قلبه، فلما شارك في تلك الغزوة أُصيب بجراحات كثيرة في جسده، ومع ذلك ظل يقاتل قتال الأبطال، فقد كان خنيس رضي الله عنه ممَن لا يبحثون عن النصر، إنما كان يبحث عن الشهادة، كانت كل أمانيه أن يموت شهيدًا على أرض بدر، ولمَّا انتهت بدر عاد خنيس إلى المدينة، متأثرًا بجراحه.

ولما وصل المدينة ما لبث أن مات هذا الصحابي الجليل الذي بذل نفسه لله، وفاز بأعظم منقبة فقدٍ صلى عليه الحبيب ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابي الجليل: عثمان بن مظعون رضي الله عنه وهكذا كان الفراق المؤلم، وهكذا ترملت حفصة رضي الله عنها وهي في سنٍ مبكرة، وحزنت لموت زوجه وقرة عينها حزنًا، كاد أن يمزق قلبها، لكنها كانت في قمة سعادتها؛ لأنه مات ميتة كريمة، وسوف تشهد له جراحه التي كانت كلها في سبيل الله.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن قضية الإيمان ليست أمرًا هامشيًا، يجوز لنا أن نغفله، أو نستخف به، أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره على هذه الأرض؛ بل أجد قضية الإيمان هي أعظم قضية مصيرية بالنظر إلى الإنسان، إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنةٌ أبدًا أو لنارٌ أبدًا، فكان لزامًا على كل ذي عقلٍ أن يفكر فيها، ويطمئن إلى حقيقتها.

الوافي بالوفيات-المعالم الأثيرة في السنة والسيرة-المغازي النبوية لابن شهاب-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم-نسب قريش-مرآة الجنان-المصباح المضي-المعارف-عيون الأثر-غربال الزمان في وفيات الأعيان-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين-الشيخان وولدهما في رواية البلاذري-الرياض النضرة في مناقب العشرة.

❊❊❊

# العابدة المُتصدِقة

قد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة، ويقرب من الفقر، ويسلب الإنسان نعمة الطمأنينة في ظل ماله الممدود، وخيره المشهود، والحق أن الكرم طريق السعةَ، وأن السخاء سبب الماء، وأن الذي يجعل يديه ممرًا لعطاء الله، يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه، وهكذا عرف الصحابة ﷺ هذا الأمر، فكانوا يتسابقون إلى البذل والعطاء، لا فرق بين الرجال والنساء، وهذه قصة امرأة كانت ثمِلة بحب الجود، والعطاء، والبذل، إننا على موعد مع أم المؤمنين: زينب بنت جحش ﷺ.

كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ امرأة تحب الصدقة حبًا جمًا، وكانت تدبغ الجلود، وتخرز وتبيع ما تصنعه، وتتصدق بذلك كله في سبيل الله ﷻ ولم تكن تحفل بالمال، أو بشيء من زخرف الدنيا، وكان بيتها ﷺ ملجأ لليتامى والمساكين، تأسو جراحهم، وتجبر كسرهم، تلبي حاجاتهم، لا تدخر في سبيل إسعادهم وسعًا، تجد في ذلك قربًا لله -تعالى- وذخرًا ليوم لا ينفع فيه مالٌ، ولو بلغ عنان السماء.

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كان يبعث لأمهات المؤمنين بالعطاء -كسائر المسلمين- وكان عطاء زينب ﷺ اثني عشر ألفًا من الدراهم، لم تأخذه إلا عامًا واحدًا. فلنستمع هنا لبررة بنت رافع ﷺ تحدثنا عن هذا الموقف فتقول: لمَّا خرج العطاء السنوي للمسلمين بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى زينب بنت جحش بعطائها، فأتيت به، ونحن عندها، فقالت: ما هذا؟

قلت: أرسل به عمر إليكِ يا أُمَّ المؤمنين.

قالت: غفر الله لعمر، والله لغيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني. قلت: يا أُمَّ المؤمنين، هذا كله لكِ.

قالت: سبحان الله! فجعلت تستر بينها وبينه بجلبابها.

ثم قالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا، فصبوه، وطرحوا عليه.

وقالت لي: يا بررة، أدخلي يديكِ فاقبضي منه قبضة، فاذهبي إلى آل فلان، وآل فلان، من أهل رحمها، وأيتامها، فقسمته، حتى بقيت منه بقية.

فقالت لها: غفر الله لكِ يا أُمَّ المؤمنين، والله لقد كان لنا من هذا حظ.

قالت لي: يا بررة لكم ما تحت الثوب، فرفعْنا الثوب، فوجدناه خمسة وثمانين درهمًا.

ثم رفعت يدها، وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا أبدًا، فماتت -ولم تحلق بالعطاء في العام المقابل-.

فبلغ أمير المؤمنين عمر ما فعلت، فقال: هذه امرأة يراد بها خيرٌ، فوقف على بابها، وأرسل بالسلام إليها، وقال: قد بلغني ما فرقت يا أُمَّ المؤمنين، فأرسل إليها بألف درهمٍ تستبقيها، فسلكت بها طريق ذلك المال هذا المسلك.

وظل حب الصدقات ملازمًا لأم المؤمنين ﵂ طوال حياتها، فلم ينقطع عنها لحظة واحدة، وكأنها كانت تفعل هذا تتهيأ بذلك لبشارة النبي ﷺ لها حين قال: أسرعكُنَّ لحاقًا بي، أطولكنَّ يدًا، فكانت هي زينب ﵂.

إن سيرة زينب بنت جحش ﵂ مليئة بالقيم الخلقية، والمبادئ الحنيفة السمحة، فقدَ مثَلت الإسلام في أُرقى معانيه، وأُسمى مظاهره، وأضحت مثلًا لكل مؤمنةَ تحب الله ورسوله، وتحذر الآخرة، وترجو رحمة ربها، فلقد كانت ﵂ سبَّاقة إلى الخير، صنَّاعة للمعروف، لا تدخر لنفسها إلا بقدر حاجتها المُلحة من الزاد، لهذا أحبها رسول الله ﷺ فليس هناك صفة أُعظم في الكون من الكرم؛ فالكريم قريب من الله ﷻ قريب من قلوب الناس، قريب من الجنة.

الطبقات الكبرى لابن سعد-صفة الصفوة-سير أعلام النبلاء-حلية الأولياء

وطبقات الأصفياء-زاد المعاد في هدى خير العباد-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد-دلائل النبوة للأصفهاني-أنساب الأشراف-منح المدح لابن سيد الناس-جمهرة أنساب العرب-تقريب التهذيب-تهذيب الأسماء واللغات-تاريخ ابن أبي زرعة.

***

# أجيبوا طلبَ رسول اللّه

لقد كانت كل صحابية بمثابة زهرة نبتت في حقل الإسلام، فلما جاءت سحابة الإيمان، وسكبت ماءها في هذا الحقل، إذا بتلك الزهرة النقية التقية تتغذى من خلال النبعين الصافيين: كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وإذا بها تنشر عطرها وعبيرها؛ ليملأ الكون كله بعطر الإيمان، وتوحيده، فأولئك هُنَّ الفتيات اللواتي ابتهج بزغ الإسلام، وفجره، وسمَت بهنَّ عظمته، وصرعت بقوتهنَّ قوته، وعنهنَّ ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت المرأة في عصور الإسلام الزاهية.

حديثنا في هذه الورقات عن امرأة ذات شخصية متميزة في عالم النساء في طاعة الله ورسوله، فعندما جاء أمر النبي ﷺ لها؛ أظهرت أنها امرأة من طراز فريد في عالم الصحابيات، فلقد سارعت رضي الله عنها للاستجابة لأمر رسول الله ﷺ عندما طلبها؛ لتتزوج من الشاب الفقير الصالح جليبيب رضي الله عنه على الرغم من أنه لا يملك شيئًا من أمر الدنيا.

إننا على موعد مع الأنصارية الجليلة، التي لم يذكر لها التاريخ اسمًا، لكنَّ هذه الفتاة المؤمنة أطاعت الله ورسوله، ففازت بدعوة ربانية من سيد الخلق ﷺ ففازت في الدنيا والآخرة، فتعالوا بنا؛ لنعيش بقلوبنا وأرواحنا، مع هذا المشهد الرائع الممتع لهذه المؤمنة المستجيبة لأمر ربها.

في ذات يوم قال الرسول ﷺ لجليبيب: ألَا تتزوج يا جليبيب؟ فقال: ومَن يزوجني يا رسول الله؟ فأنا شابٌ فقيرٌ، لا نفقة عندي، ولا صداق، فقال النبي ﷺ: أنا أبتغي لك الزوجة الصالحة، والله -تعالى- هو الذي يغنيكما من فضله.

وفي ذات يوم قال النبي ﷺ وسلم لرجلٍ من الأنصار: يا فلان، زوجني ابنتك فلانة، فاستطار الرجل فرحًا بما سمع، وقال: نعم يا رسول الله، ونعمة عين، وأكرم بك يا رسول الله من صهر، فقال النبي ﷺ: إني لستُ أريدها لنفسي، فقال الرجل:

لمن تريدها يا رسول الله؟ فقال: لجليبيب، فقال الرجل: أنظرني يا رسول الله، حتى أستشير أمها؛ فأنا لا أريد أن أقطع في أمر كهذا دونها.

مضى الرجل إلى بيته كاسف البال، حزين النفس، فقد كان يعلم علم اليقين؛ بأن زوجته لا ترضي بفتى فقير مثل: جليبيب زوجًا لبنتها، وكان في الوقت نفسه لا تطيب نفسه بأن يرد طلب لرسول الله ﷺ مهما كان مطلبه عزيزًا، فلما بلغ البيت، نادي زوجته، وقال: يا أم فلانة؛ فأقبلت عليه، وهي تقول: لبيك.

فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، فقالت: ابنتي، رسول الله ﷺ يخطب ابنتي، يا لسعدها! نعم نزوج! رسول الله ﷺ وهل فوق ذلك الشرف من شرف؟ فقاطعها الرجل، وقال: ولكنه لا يريدها لنفسه، فسكنت المرأة، ثم قالت: فلمن يريدها إذن؟ قال: لجليبيب،،قالت: لجليبيب؟ لا، لعمرِ الله لا أزوجها من جليبيب.

قال الرجل: ماذا أقول لرسول الله ﷺ؟ قالت: قل له ما تشاء، تقدم له بما يحضرك من عذر، فما أنا بالتي ترضى جليبيبًا زوجًا لبنتها، ولا صهرًا لها، وحمي الحوار بين الزوجين، وارتفع صوتهما، فالزوج يسترضي امرأته، ويستلينها، والزوجة تشتد على زوجها وتصر، فلما يئس من إقناعها، وهم بالمضيَ إلى رسول الله ﷺ لإبلاغه القرار.

هنا بادرت إليهما ابنتهما؛ وكانت قد سمعت أطرافًا من الحوار الذي دار بينهما، وقالت: من خطبني إليكم؟ قالت الأم: خطبك النبي ﷺ لجليبيب، وقد رفضت أن أزوجك منه، فبنت في مثل شبابك، وجمالك، وحسبك؛ جديرة بأكرم الأزواج.

فقالت الفتاة المؤمنة: ويحكم أَتَردون على رسول الله ﷺ أمره؟ والله ما أنا بالتي ترفض طلبًا لرسول الله ﷺ أجيبوا طلب رسول الله ﷺ فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أعطوني لجليبيب، وثقوا بأن الله لن يضيعني أبدًا، فسكتت الأم على مضَض.

لقد آثرت هذه الفتاة المؤمنة رضا النبي ﷺ واختياره، ولم تلتفت إلى ما بينها وبين جليبيب من فارق النسب؛ بل رضيت بما رضي لها رسول الله ﷺ من كفاءة الدين، وهذا دليل عن تقواها وصلاحها.

ومضى الأب إلى رسول الله ﷺ وقال: أنت وما تريد يا رسول الله، زوج ابنتنا من جليبيب، فانبسطت أسارير رسول الله ﷺ ودعا للبنت، وقال: اللهم صب عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا، وزوجها من جليبيب.

لقد طلب رسول الله ﷺ الفتاة التي يريد جليبيب زواجها؛ فأرسل النبي ﷺ إلى والديها يعرض عليهما هذه الرغبة، وكأنهما لم يرغبا في ذلك؛ لدمامته وفقره كما ذكرنا، لكن الفتاة كانت مؤمنة فاضلة عاقلة، فساءها موقف أبويها، ورغبت في الزواج منه، وتلت عليهما قول رب العزة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(الأحزاب: ٣٦)، وهكذا يجب أن يكون المسلم.

رواه الطبراني-صحيح مسلم-سنن ابن ماجه-الاستيعاب في معرفة الأصحاب-الطبقات الكبرى-مجمع الزوائد-مسند الإمام أحمد-إمتاع الأسماع-تاريخ خليفة بن خياط-تقريب التهذيب-تاريخ مدينة دمشق-تهذيب الأسماء واللغات-تاج العروس.

***

# السابِقة إلى الخير

إذا مرت أمامنا صورة قدوم النبي الأعظم ﷺ المدينة تمر معها صور كرم الأنصار، رجالهم ونسائهم، وما أظهرته النساء الأنصاريات من حسن الكرم والضيافة، مما يدخل السرور على النفوس، فقد كنَّ يتسابقنَ في ميدان الفضائل، يبتغين بذلك رضوان الله ﷻ ومرضاة النبي ﷺ وحديثنا في هذه السطور عن أنصارية من فضليات النساء، كانت كريمة بالفطرة وسخية بما تملك، سخرت مالها وابنها لله -تعالى- ولنصرة دينها، وكرم وجود هذه المرأة آية من آيات الإيثار الصادق، من أجل ذلك، كانت خليقة بدعاء رسول الله ﷺ بالبركة، إذ قال لابنها: بارك الله فيك، وفي أمك، تلكمُ هي: النوار بنت مالك النجارية الأنصارية، وابنها زيد بن ثابت -رضي الله عنهما-.

سيرة النوار بنت مالك ﵂ من أجمل سير الصحابيات؛ لأنها تجمع العلم والفائدة، والمعرفة والعطاء، وما أجمل أن نجمع طاقاتٍ مزهرة من السيرة النوارية، نزين بها مجالس الأنس، وتكون قدوة للأمهات في كافة العصور، فيتعلمنَ منها أصول التربية؛ ومكارم الأخلاق.

كانت النوار بنت مالك متزوجة من الصحابي ثابت بن الضحاك الخزرجي -وهو أول من أسلم من أهل يثرب- فولدت له زيدًا ويزيد، فأما زيدًا فقد طارت شهرته الآفاق، وكان من أعظم علماء الصحابة، ومن الراسخين في العلم، وأما يزيد، وهو أسنُ من أخيه زيد، قُتل يوم اليمامة شهيدًا، أما زوجها فقد قُتل يوم بعاث قبيل الهجرة بخمسةِ أعوام، وهو أول من أسلم من يثرب على الإطلاق، وبعد موت ثابت تزوجت النوار من الصحابي الجليل "عمارة بن حزم الأنصاري"، فولدت له مالكًا.

ولما جاء مصعب بن عمير ﵁ هذا السفير الناجح الذي أسلم على يديه معظم أهل المدينة، ومن بينهم النوار بنت مالك التي راحت تحفظ بشغفٍ آيات القرآن الكريم،

وتلقنها ابنها زيد بن ثابت -الذي غدا فيما بعد الإمام الكبير وشيخ المقرئين، وجمع القرآن في عهد الصديق-.

وما إن حل رسول الله ﷺ مهاجرًا في طيبة الطيبة؛ حتى كان أطفال الأنصار وأشبالهم حوله مرحبين مستبشرين، وكان من بينهم زيد، وكان عمر زيد عشرة أعوام، ومنذُ اليوم الأول لهجرة الحبيب ﷺ إلى المدينة، شرع الأنصار رجالًا، ونساءً، يتسابقون إلى الحفاوة بمقدمه الشريف، وفي ميدان هذا التسابق المحمود فازت النوار بالمركز الأول في مضمار الجود.

ولنترك زمام الكلام لابنها زيد؛ كيما يذكر للمحبين ما صنعته أمه احتفاءً برسول الله ﷺ وكيف أرسلته بهديةٍ فيها طعامٌ نفيسٌ! فيقول: لما نزل رسول الله ﷺ ضيفًا على أبي أيوب، لم يدخل منزل رسول الله هديةٌ، وأول هديةٍ دخلت بها عليه قصعة مثرودة خبزًا برًا، وسمنًا ولبنًا، فأضعها بين يديه، فقلت: يا رسول الله، أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال -صلى الله عليه وسلم:- بارك الله فيك، وفي أمك، ودعا أصحابه فأكلوا.

ويمضي زيدٌ في الكلام عن سخاء أمه، وعن سخاء بني النجار الأنصار، وينقل لنا هذه الصورة الجميلة فيقول: فلقد كنا في بني مالك بن النجار، ما من ليلةٍ إلا على باب رسول الله ﷺ منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام، ويتناوبون بينهم حتى تحول رسول الله ﷺ من بيت أبي أيوب، وكان مقامه فيه سبعة أشهرٍ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلةٍ.

إن هذه منقبةً عظيمةً حظيت بها النوار بن مالك، وكذلك مفخرةٌ من مفاخر بني النجار خاصة؛ إذ أسهم نساؤهم ورجالهم في تقديم الهدايا والطعام إلى البيت النبوي، وإن كان لسعد بن عبادة الصدارة في هذا المضمار؛ فإن للنوار فضلًا للسبق في هذا المضمار.

وتمضي الأيام سريعًا، ويأتي العام الثالث للهجرة، وإذا بدعي رسول الله ينادي: يا خيل الله، اركبي، فينطلق الطفل الصغير زيد بن ثابت إلى رسول الله ﷺ يريد

الخروج؛ للجهاد معه ولم يتجاوز ثلاث عشرة من عمره بعد، ولكن الطفل الصغير الطموح فوجئ مفاجأة قاسية عند ذهابه لمكان تجمع الجيش، فقد استقبله رسول الله ﷺ مع غيره من المجاهدين، فوجده صغيرًا في السن والجسم، فخاف عليه، فرده، ولم يقبله في الجيش.

ولقد عاد زيد إلى أمه: النوار بنت مالك، وهو يبكي من شدة الحزن، لعدم الخروج للجهاد مع الرسول القائد ﷺ لكن النوار الأُم العاقلة المربية الفاهمة، لدينها المدركة لمواهب ابنها، قالت له: لا تحزن يا زيد، تستطيع أن تخدم الإسلام بصورة أخرى، إن لم يكن بالجهاد بالسيف؛ فليكن بالجهاد باللسان والقلم، قالت الأم الداعية تلفت نظر ابنها إلى أن مجالات العمل لله واسعة، ومتشعبة، وأن إمكانات البشر مختلفة، ومتفاوتة، وأن الذي لا يستطيع أن يؤدي في مجال يستطيع، أن يبدع في مجال آخر، فقالت:

أنت تتقن القراءة والكتابة -وهذا نادر في ذلك الزمن- وأنت تحفظ كثيرًا من سور القرآن الكريم حفظًا جيدًا؛ فلنذهب إلى رسول الله ﷺ عندما يعود من أُحد؛ لنرى كيف يمكن أن نوظف هذه الطاقات؛ لخدمة الإسلام والمسلمين، وبعد أُحد جاءت النوار إلى المسجد، وقالت: يا نبي الله، هذا ابني زيد يحفظ سبع عشرة سورة من كتاب الله، ويتلوها صحيحة كما أنزلت على قلبك، وهو فوق ذلك حاذقٌ يجيد الكتابة والقراءة، وهو يريد أن يتقرب بذلك إليك، وأن يلزمك، فاسمع منه إذا شئت.

سمع الرسول الكريم ﷺ من الغلام زيد بعضًا مما يحفظ، فإذا هو مشرق الأداء، مبين النطق، تتلألأ كلمات القرآن على شفتيه، كما تتلألأ الكواكب على صفحةِ السماءِ، ثم إن تلاوته تنم على تأثرٍ بما يتلو، ووقفاته تدل على وعي لما يقرأ، وحسنِ فهمٍ، فسر به الرسول الكريم ﷺ إذ وجد فوق ما وصف له، وزاده سرورًا به إتقانه للكتابة؛ فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: يا زيد، تعلم لي كتابة اليهود، فإني لا آمنهم على ما أقول.

فأكب الغلام، وتعلم العبرية حتى حذقها في وقت يسير، ثم تعلم السريانية بأمر من

النبي ﷺ حتى أصبح الفتى ترجمان رسول الله ﷺ ولما استوثق النبي ﷺ من رصانة زيدٍ وأمانته، ودقته وفهمه، جعله كاتبًا للوحي.

ولقد نالت النوار بنت مالك ﵂ المنزلة الكبيرة بين نساء؛ إذ نال ابنها أعظم منزلة عند رسول الله ﷺ وعند الخلفاء الراشدين من بعده، خصوصًا الصديق الذي وصف زيدًا أنه عاقل، ومن ثَم كلفه بجمع القرآن الكريم، فقام بالمهمة أحسن قيام، وبورك في عمله، كما بورك من قبل بدعاء رسول الله ﷺ له ولأمه النوار.

وظلت النوار ﵂ أُمًا معطاء، وأُما صابرة، فقد استُشهد ابنها يزيد يوم اليمامة، فاحتسبته عند الله، وبقيت زمنًا إلى أن لقيت ربها، قبل وفاة ابنها زيد بقليل، وقد تُوفي زيد سنة ٤٥ هجرية.

الوافي بالوفيات-المصباح المضي-المحبر في التاريخ-تاج العروس-سبل الهدى والرشاد-إمتاع الأسماع-السيرة الحلبية-تهذيب الكمال في أسماء الرجال-تهذيب التهذيب-تاريخ دمشق لابن عساكر-سير أعلام النبلاء-الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار-تاريخ المدينة المنورة-سيرة ابن هشام-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير .

***

# الوفيّ الصبور

حديثنا في هذه الصفحات عن امرأة كانت مثالًا للمرأة الصابرة، التي لا تهزها الأحداث هزًا يضعف من إيمانها، أو يفت في عضدها، أو يعوقها عن تأدية واجبها نحو أولادها، ونحو سائر المسلمين؛ فالإيمان أمان من كل هذه العوائق، ومثبطاتها، وإيمانها هو الذي جعلها تصبر على فراق الأوطان، فقد كانت ذات عقلٍ رشيدٍ، ورأي سديدٍ، وقلب سليم، وخلق فاضل، وسلوك نبيل، إنها أُمُّ المؤمنين: هند بنت أبي أمية، الشهيرة بأمِّ سلمة بنت زاد الراكب ﵂.

كانت أم سلمة تعيش قبل الإسلام حياة النعيم، ورخائه، وسعته، ودعته، وخفض العيش، ينفق عليها زوجها، ويرعاها، ويحنو عليها حنو المرضعات على الفطيم، فقد عرفت بين أترابها بكمال طلعتها، وجمال روحها، ورقة طبعها، ناهيك بكرم والدها الذي غطى رجال مكة، وما حولها؛ فأبوها سيد سادات بني مخزوم، وجوادٌ من أجواد العرب المعدودين، حتى إنه كان يُقال له: زاد الراكب؛ لأن الركبان كانت لا تتزود إلا إذا قصدت منازله، أو سارت في صحبته.

لكنها في غضون أيام تترك هذا النعيم كله؛ لتنتقل إلى نعيم روحي آخر، عبقت مكة كلها بأريجه، إنه عبق الإسلام، الذي يدعو إليه محمد ﷺ فقد سارعت أم سلمة وزوجها إلى الإيمان بالله، فكانا من السابقين، وما إن شاع نبأ إسلام أم سلمة وزوجها، حتى هاجت قريش، وماجت، وجعلت تصب عليهما العذاب صبًا، ما يزلزل الصخور الصلاب، فلم يضعفا، ولم يَهنا، ولم يترددا، ولمَّا اشتد عليهما العذاب أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فكان أول مَن خرج من المسلمين، فارًا بدينه إلى أرض الحبشة أبو سلمة، ومعه امرأته أم سلمة.

مضت أم سَلمة وزوجها إلى ديار الغربة، وخلفت وراءها في مكة بيتها الباذخ،

وعزها الشامخ، ونسبها العريق؛ محتسبة ذلك كله عند الله، مستقلة له في جنب مرضاته، وعلى الرغم من أن ما لقته أم سلمة، وصحبها من حماية النجاشي، فإن الشوق إلى مكة كان مهبط الوحي، والحنين إلى سماع القرآن من فم الصادق الصدوق، يفري كبدها وكبد زوجها فريًا، ثم تتابع الأخبار على المهاجرين بأن المسلمين في مكة أصبحت القوة لهم، بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب ﷺفعزم فريق منهم العودة إلى مكة، يحدوهم الشوق إلى البيت العتيق، فكانت أم سلمة وزوجها في طليعة العائدين.

لكن سرعان ما اكتشف العائدون أن ما نمى إليهم من أخبار كان مبالغًا فيها، وأن الوثبة التي وثبها المسلمون بعد إسلام حمزة وعمر، قد قوبلت من قريشٍ بهجمةٍ أكبر، فافتن المشركون في تعذيب المسلمين وترويعهم، وأذاقوهم من بأسهم ما لا عهد لهم به من قبل، عند ذلك أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعزمت أم سلمة وزوجها على أن يكونا أول المهاجرين؛ فرارًا بدينهما، وتخلصًا من حصار قريش لهم، لكن هجرة أم سلمة وزوجها لم تكن سهلة ميسرة كما خيل لهما، وإنما كانت شاقة، مرة خلفت وراءها مأساة تهون دونها كل مأساة، فلنترك الكلام لأم سلمة؛ لتروي لنا قصة مأساتها، فشعورها بها أشد وأعمق، وتصويرها لها أدق وأبلغ.

قالت أم سلمة: لما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة، أعد لي بعيرًا، ثم حملني عليه، وجعل طفلنا سلمة في حجري، ومضى يقود بنا البعير، وهو لا يلوي على شيء، وقبل أن نخرج من مكة؛ رآنا رجالٌ من قومي بني مخزوم، فتصدوا لنا، وقالوا لأبي سلمة: إن كنت قد غلبتنا على نفسك، فمال بال امرأتك هذه؟! وهي بنتنا، فعلامَ نتركك تأخذها منا، وتسير بها في البلاد؟ ثم وثبوا عليه، وانتزعوني منه انتزاعًا، وما إن رآهم قوم أبو سلمة بنو عبد الأسد، يأخذونني أنا وطفلي، حتى غضبوا أشد الغضب وقالوا: لا واللهِ لا نترك الولد عند صاحبتكم بعد أن انتزعتموها من صاحبنا انتزاعًا؛ فهو ابننا ونحن أولَى به.

ثم طفقوا يتجاذبون طفلي سلمة بينهم على مشهدٍ مني، حتى خلعوا يده، وأخذوه،

وفي لحظاتٍ وجدت نفسي ممزقة الشمل وحيدة؛ فزوجي اتجه إلى المدينة فرارًا بدينها ونفسه، وولدي اختطفه بنو عبد الأسد من بين يدي، أمَّا أنا فقد استولى عليَّ قومي بنو مخزوم، وجعلوني عندهم، ففرق بيني وزوجي، وبين ابني في ساعةٍ، ومنذُ ذلك اليوم جعلت أخرج كل غداةٍ إلى الأبطح، فاجلس في المكان الذي شهد مأساتي، وأستعيد صور اللحظات التي حيل فيها بيني وولدي وزوجي، وأظل أبكي؛ حتى يخيم عليَّ الليل، وبقيت على ذلك سنة، أو قريبًا، إلى أن مر بي رجل من بني عمي؛ فرقَّ لحالي، ورحمني، وقال لبني قومي: أَلَا تطلقون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها، وزوجها وبين ولدها، وما زال بهم يستلين قلوبهم، حتى قالوا لي: ألحقي بزوجك إن شئتِ، وردَّ على بني عبد الأسد عند ذلك ابني.

لم أشأ أن أتريث في مكة، حتى أجد مَن أسافر معه، فقد كنت أخشى أن يحدث ما ليس في الحسبان؛ فيعوقني عن اللحاق بزوجي عائقٌ، لذلك بادرت، فأعددت بعيري، ووضعت ولدي في حجري، وخرجت متوجهة نحو المدينة، وما إن بغلت التنعيم حتى لقيت عثمان بن طلحة فقال: إلى أين يا بنت زاد الراكب؟ فقلت: أريد زوجي في المدينة، قال: أو ما معك أحدٌ، قلت: لا واللهِ إلا الله، ثم ابني هذا، قال: واللهِ لا أتركك أبدًا؛ حتى تبلغي المدينة.

ثم أخذ بخطام بعيري، وانطلق يهوي بي، فواللهِ ما رأيتُ رجلًا من العرب قط أكرم منه، ولا أشرف، فكان إذا بلغ منزلًا من المنازل ينيخ بعيري، ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره، واستويت على الأرض دنا إليه وحط عنه رحله، واقتاده إلى شجرةٍ، وقيَّده فيها، ثم يتنحى عني إلى شجرةٍ أخرى، فيضطجع في ظلها، فإذا حان الرواح قام إلى بعيري، فأعد، وقدمه إليَّ، ثم يستأخر عني، ويقول: اركبي، فإذا ركبت، واستويت على البعير، أتى فأخذ بخطامه، وقاده، وما زال يصنع بي مثل ذلك، كل يومٍ حتى بلغنا المدينة، فلما نظر إلى قرية بقباء لبني عمرو بن عوفٍ، قال: زوجكِ في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف؛ راجعًا إلى مكة.

والتقى الزوجان بعد عامٍ حافل بالذكريات المضنية، والانتظار المؤلم، واستأنفا

الحياة في المدينة مع رسول الله ﷺ ثم طفقت الأحداث تمضي سراعًا، كلمح البصر، فهذه بدرٌ يشهدها أبو سلمة، ويعود منها مع المسلمين، وقد انتصروا نصرًا مؤزرًا، ثم جاءت أُحد، فأبلى فيها أبو سلمة بلاءً حسنًا، وواصل فيها جهاده وجلاده، مقدمًا غير محجم؛ حتى ناله، وسام إلهي من هذه المعركة، وهو جرح عميق في عضده، وظل شهرًا يتداوى منه، وهو يتحرق شوقًا إلى معاودة القتال في الميدان، لكن الجرح قد رُمَّ على فسادٍ، فما لبث أن انفتح، وألزم أبا سلمة الفراش.

وفيما كان أبو سلمة يعالج من جرحه قال لزوجه: يا أم سلمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تصيب أحدًا مصيبةً، فيسترجع عند ذلك، ويقول: اللهم عندك احتسبت مصيبتي هذه، اللهم أخلفني خيرًا منها، إلا أعطاه الله ﷻ ظل أبو سلمة على فراش مرضه أيامًا، وفي ذات صباح جاءه رسول الله ﷺ ليعوده؛ فلم يكد ينتهي من زيارته، ويجاوز باب داره، حتى فارق أبو سلمة الحياة، فأغمض النبي ﷺ بيديه الشريفتين عيني صاحبه، ورفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المقربين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله، يا رب العالمين.

أما أم سلمة فتذكرت ما رواه لها أبو سلمة عن رسول الله ﷺ فقالت: اللهم عندك أحتسب مصيبتي هذه، لكنها لم تطب نفسها أن تقول: اللهم أخلفني فيها خيرًا منها؛ لأنها كانت تتساءل: ومن عساه أن يكون خيرًا من أبي سلمة؟ لكنها ما لبث أن أتمت الدعاء.

فلما وفت عدتها من وفاة زوجها أبي سلمة، حتى تقدم أبو بكر الصديق يخطبها لنفسه؛ فاعتذرت إليه بأدبٍ ولطفٍ، ثم تقدم إليها عمر بن الخطاب؛ فلم تجبه بشيء، ثم تقدم إليها سيد الأولين والآخرين ﷺ فاستبشرت بذلك خيرًا، ورأت أن الله ﷻ قد أراد بها خيرًا كثيرًا في الدنيا، وأراد لها الفوز في الآخرة، لكنها خشيت أن يناله شيء من الأذى، فقالت يا رسول الله، إن فيَّ خلالًا ثلاثًا: فأنا امرأة شديدة الغيرة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يغضبك، فيعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن -أي: جاوزت سن الزواج- وأنا امرأة ذات عيال.

فقال ﷺ: أما ما ذكرت من غيرتك؛ فإني أدعو الله ﷻ أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال، فإنما عيالك عيالي، ثم تزوج رسول الله ﷺ من أم سلمة، فاستجاب الله دعاءها، وأخلفها خيرًا من أبي سلمة.

عاشت أم المؤمنين أم سلمة في بيت النبوة، تفعل الخير وترجو من الله حسن الجزاء، مثلها في ذلك كمثل أم المساكين: زينب بن خزيمة، وكانت الآخرة مبلغ همها؛ فجعل الله غناها في قلبها، وعاشت مع رسول الله ﷺ على القليل من الزاد، والخشن من الثياب والفراش، ولقد سألت رسول الله ﷺ يومًا، وقالت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة إذا أنفقت عليهم؟ فقال: نعم، لكِ أجر ما أنفقتِ عليهم.

وفي العام السادس للهجرة صحبت أم سلمة رسول الله ﷺ في رحلته إلى مكة، معتمرًا وهو وأصحابه؛ فصدتهم قريش عن دخول البيت الحرام في عامهم هذا، على أن يعودوا إلى مكة معتمرين في العام الذي بعده، وكان لها في هذه الرحلة رأيٌ سديد في أمر أهمَّ النبي ﷺ وأقلق مضجعه، ذلك أن الصحابة هالهم وأزعجهم منع أهل مكة من دخولهم البيت معتمرين، وكبر عليهم أن يعودوا إلى المدينة مخذولين، وهم الأقوياء المنصورون دائمًا في كل عراك، ولكن الرسول ﷺ قد رأى في الأمر خيرًا، وعلِم أنَّ الله لن يخذله، فأمر أصحابه بعد إتمام صلح الحديبية أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رؤوسهم، ويتأهبوا للعودة إلى المدينة.

فشق ذلك على الصحابة، وما قام منهم أحد، حتى كرر الرسول ﷺ أمر النحر والحلق ثلاث مرات، فلما يقمْ أحد؛ فلما دخل النبي ﷺ على زوجه أم سلمة، فذكر لها ما لقي من أصحابه؛ فقالت: يا نبي الله، أَتُحب ذاك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك، فيحلقك؛ فقام، فخرج، ولم يكلم أحدًا منهم كلمة، حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

وقد صحبت أم سلمة النبي ﷺ في غزوة خيبر، وفي فتح مكة، وفي حصار الطائف، وفي حجة الوداع، وكانت ﵂ تلاطف النبي ﷺ في حِله وترحاله، وتوفر له الهدوء والراحة أينما وُجد، وفي أي مكانٍ صحبته فيه، ولم يجد منها ﷺ إلا ما يسرُّه، وكانت تتمنى من أعماق قلبها أن ترزق منه بمولود؛ تقر به عينه، فلم يشأ الله لها ذلك.

وعاشت ﵂ بعد النبي ﷺ في محرابها؛ تتعبد ليس لها من عمل تشغل نفسها به إلا الصلاة والصيام، والإنفاق على المساكين، وامتدَّ العمر بها، حتى عاشت نحو تسعين سنةً، وقد رحلت عام أحد وستين للهجرة، وصلَّى عليها أبو هريرة ﵁ ودفنها المسلمون في البقيع؛ فكانت آخر مَن مات من أمهات المؤمنين ﵃.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب-تقريب التهذيب-صفة الصفوة-البداية والنهاية-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-تهذيب التهذيب-زاد المعاد في هدى خير العباد-الإصابة في تمييز الصحابة-الطبقات الكبرى-حلية الأولياء-تهذيب الأسماء واللغات-الكامل في التاريخ-تاريخ خليفة ابن خياط-تهذيب الكمال-سبل الهدى والرشاد-تاريخ دمشق-سيرة ابن هشام-السيرة الحلبية .

***

# المرأة التي سمع الله شكواها

من الصحابيات من فقهت دينها، وأخذت من أحكام الشريعة بحظٍ وافرٍ، وعرفت طريقها إلى الله ﷻ فاستجابت له، وأسلمت أمرها إليه، وأحسنت التوكل عليه، واستمسكت بالعروة الوثقى؛ حتى لقت ربها ﷻ وهي مؤمنة صادقة كل الصدق في إيمانها، مخلصة كل الإخلاص في أقوالها وأفعالها، وأحوالها ومقاصدها، ومن هؤلاء: خولة بنت مالك بن ثعلبة الأنصارية، امرأة أوس بن الصامت -رضي الله عنهما-.

خولة بنت مالك ﵂ امرأة تحلت بالفضائل، وتخلت عن الرذائل، واشتُهرت بالحلم والحكمة، وتميزت بالجدل، الذي يوصل إلى الحق، ويهدي إلى سواء السبيل، وقد كانت ﵂ تحسن إلى زوجها وابن عمها أوس بن الصامت، وتحنو عليه، وتجود عليه بالكثير من مالها، ولا تدخر وسعًا في إسعاده، وإدخال السرور عليه، ولا تقصر في حقه عليها، وكانت تحبه وتطيعه في غير معصية الله ﷻ على ما فيه من شدة في معاملتها، في كثير من الأحيان، وقد كان لهذه الصحابية الجليلة شأنٌ عظيمٌ عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ وعند أصحابه المقربين ﵃.

وكان لهذه الصحابية الجليلة الفضل في إبطال الظِهار، وتحريمه على كل مسلم، والتخلص من بوائقه بمشروعية الكفارة لمن وقع فيه، وأراد العدول عنه؛ ففي شأنها مع زوجها أنزل الله قرآنا يُتلى إلى قيام الساعة، يروي أصحاب السير والمحدثون أنها قالت: فيَ واللهِ، وفي أوس بن الصامت أنزل الله ﷻ صدر سورة المجادلة، فتعالوا بنا؛ لنستمع إلى قصة على لسان صاحبته الصحابية الجلية: خولة بنت مالك ﵂ إذ قالت:

كنت عند أوس بن الصامت، وكان شيخًا كبيرًا، قد ساء خلقه وضجر، فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء بأمور البيت؛ فغضب، وقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني؛ فقلت: كلَّا، والذي نفسي

بيده، وقد قلتُ ما قلت؛ حتى يحكم الله ورسوله فينا.

ثم انطلقت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه؛ فذكرت له ما لقيت منه؛ فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه؛ قلت: فواللهِ ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه؛ فقال: يا خويلة، فقد أنزل الله فيكِ وفي صاحبكِ قرآنًا ثم قرأ عليَّ:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ١ إلى ٤).

لقد كانت هذه الآيات الأربع حلًا لإشكالٍ، طالما تأزمَ خطره على المجتمع العربي في الجاهلية، واستشرى ضرره بين الأزواج والأسر؛ فقد كان الرجل إذا أراد أن يفارق زوجته يشبهها بأمه في الحرمة؛ فيقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي، وبذلك القول المنكر والمزور تفارقه، ويفارقها إلى الأبد.

وقد شاء الله -تعالى- أن تجيء خولة إلى رسول الله ﷺ فتشكو له زوجها؛ فتحاوره في أمره وأمرها، وتقول له في حوارها: يا رسول الله، زوجي فعل وفعل، وقد كبرت سني، ووهَن عظمي، ولي منه أولاد، إن تركتهنَّ إليه ضاعوا، وأبقيتهم معي جاعوا، والرسول ﷺ يقول لها: أراكِ قد حرمت عليه؛ فهو لا يملك شيئًا، وليس عنده في هذا الأمر مخرجٌ يدلها عليه، ولكن الله ﷻ كان يعلم حالها، ويسمع قولها، وهو أرحم بها من نفسها على نفسها؛ فأنزل هذه الآيات؛ لتكون مخرجًا لها ولأمثالها من هذا المأزق الحرج والموقف الحرج.

قال لها الرسول ﷺ بعد أن تلا عليها هذه الآيات: مُريه أن يعتق رقبة، فقالت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق به رقبة؛ فهو رجل فقير، فقال ﷺ: فليصم شهرين متتابعين؛ قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير، لا طاقة له على الصوم، فقال ﷺ: فليطعمْ ستين مسكينًا، قالت: يا رسول الله، ما عنده ذلك، فقال ﷺ: إنا سنعينك بعزق من تمر، قالت: وأنا يا رسول الله، سأعينه بعزق آخر، فقال ﷺ: قد أصبتِ، وأحسنتِ؛ فاذهبي، فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا.

ففعلت ذلك، وعادت إلى زوجها الحبيب، راضية مرضية، وحفظ المسلمون لها هذا الفضل ودعوا لها بخير.

ومنذ ذلك الموقف العظيم وكبار الصحابة يعرفون لها قدرها وفضلها؛ فيرحبون بها عند رؤيتها، يروي أصحاب السير والمحدثون أن أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبصرها من بعيد؛ فوقف لها وانتظر قدومها؛ فحياها ودعا لها وأثنى عليها، ولم ينصرف عنها حتى بدأت هي بالانصراف؛ فعاتبه رجل ممَن كان معه، فقال: ويلك، أَتَدري مَن هذه؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ (المجادلة: ١).

إن هذه المرأة قد عرفت أن الله لن يضيعها، ولن يخذلها أبدًا في شكواها، فقالت: بعد أن أكثرت الجدال في هذا الشأن الذي جاءت من أجله: إلى الله أشتكي، أي: إليه أبث حزني وأسفي، لا إلى غيره؛ فهو الذي بيده الأمر كله، وإليه الملجأ والملاذ، وهي تعلم أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ فهو يتلقى الوحي من ربه، ولا يقول في الدين برأيه؛ فأنزل الله هذه الآيات؛ حسمًا للقضية، ودفعًا للحرج والمشقة، وإحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل، ووضعًا للأمور في نصابها.

الجامع في علوم القرآن-تفسير ابن كثير-تفسير الطبري-الاستبصار في نسب الأنصار-السيرة الحلبية-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-حياة الصحابة-تقريب

التهذيب-تهذيب أسماء الصحابة-أسد الغابة في معرفة الصحابة-الاستيعاب في معرفة الأصحاب-تهذيب الأسماء واللغات-تاريخ مدينة دمشق-الطبقات الكبرى-سيرة ابن هشام .

***

# الصابرة الوفية

في رحلتنا السعيدة بين الأخيار، ومع عالم الصحابيات نلتقي بامرأة ذات صلة وقرابة ومكانة، لدى رسول الله ﷺ امرأة صادف الإيمان قلبها خاليًا، فتمكن منه، وأصبح إيمانها إيمانًا لا مثار فيه للريب أو الشبهات، وكانت مع أخواتها ممَن وجدنَ الله ﷻ ملء سمعهنَّ وبصرهنَّ، فلا يشعرنَ إلا به، ولا يعملنَ إلا له، ولا يقدمنَ على ما عساه أن يغضبه، أو يستنزل سخطه. حديثنا في هذه السطور عن زوج أسد الله، وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب: سلمى بنت عميس بن معد الخثعمية -رضي الله عنهما-.

شهدت سلمى بنت عميس أحداث الدعوة الإسلامية وتطوراتها في مكة منذ البداية، فشاهدت ما لقيه المسلمون من الأذى في سبيل الله ﷻ وشهدت هجرة أختها أسماء بنت عميس، وزوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى أرض الحبشة مع ثُلة من المؤمنين، غير أن حادثة ضجت لها قريش هي سبب إسلامها، ولم تكن هذه الحادثة سوى إسلام حمزة بن عبد المطلب زوجها رضي الله عنه.

فلقد خرج يومًا من داره متوشحًا قوسه وسيفه، ميممًا وجهه شطر الصحراء؛ ليمارس هوايته المحببة، ورياضته المفضلة، وهي الصيد، وكان صاحب مهارة فائقة، فلما قضى هناك بعض يوم، رجع إلى مكة ميممًا وجهه شطر المسجد الحرام؛ ليطوف بالكعبة المشرفة، قبل أن يعود إلى بيته، وفي الطريق إلى الكعبة لقيته جارية لعبد الله بن جدعان، وكانت تُخفي إسلامها، فقالت له:

يا أبا عمارة، أَتَترُك أبا جهل يفعل بابن أخيك محمد ﷺ كذا وكذا؟ وإذا بشهامة ومروءة حمزة بن عبد المطلب تحركه، وهو لا يزال على الكفر، فيذهب إلى أبي جهل، ويضربه بالقوس على رأسه، ويقول: أَتسُبُّ محمدًا وأنا على دينه؟ فشجَ رأس أبي جهل

بقوسه، وأدماه، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة صاح حمزة -مرة أخرى- في أبي جهل: أَتشتُم محمدًا، وأنا على دينه؟ ونسيَ الجالسون الإهانة التي نزلت بزعيمهم، الذي ينزف الدم من رأسه، وشغلتهم تلك الكلمة التي نزلت عليهم كالصاعقة، فقالوا: أَأسلَم حمزة أعزُّ فتيان قريش وأقواهم شكيمة؟!

وتوجه حمزة -أسد الله- في براثنه إلى دار الأرقم؛ ليلقى فيها ابن أخيه الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه؛ ليعلن إسلامه، وينطق بكلمة التوحيد مدوية في أرجاء مكة، ففرح النبي ﷺ وأصحابه، ويتحول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه بيوم شهامة من أسد الصحراء إلى أسد الله، ثم سيد الشهداء، ولما عاد حمزة إلى داره عرض على زوجه سلمى الإسلام، فأسلمت في مكانها -وقِيل كان إسلامها في أوائل الدعوة، قبل إسلام حمزة، وكانت تخفي إسلامها، وهذا هو الأرجح-.

ولما بدأت كتائب المهاجرين تنطلق نحو المدينة المنورة، كانت سلمى وزوجها حمزة رضي الله عنهما فيمَن هاجر إلى الله ورسوله ﷺ واستقر في المدينة، وقد آخى النبي ﷺ بين حمزة وزيد بن حارثة رضي الله عنهما ولقد بلغت المؤاخاة الكريمة بينهما مبلغًا عظيمًا، فهي محبة خالصة لوجه الله -تعالى- لا تشوبها أية شائبة، من طلب حُطام الدنيا وزهرتها الفانية.

ودارت الأيام مسرعة، وجاءت بدر الكبرى، وما أدراك ما يوم بدر؟ يوم بدر هو الفرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين الموحدين في إيمانهم الراسخ، وقوة إيمانهم ويقينهم، وجمع المشركين في غرورهم المهزول الضئيل، وكفرهم الغشوم الهزيل، يوم بدر هو يوم الفصل بين حياة وحياة، يوم علت فيه كلمة الله، وهي العليا منذ الأزل.

ففي يوم بدر أبلى حمزة في قتال المشركين أشد البلاء وأعظمه، فكان ثقيل الوطأة على الوثنيين، شديد النكاية بهم، فما إن التقى الجمعان في ذلك اليوم الأغر، حتى برز حمزة كالجمل الأورق، وقد وضع على صدره علامة تميزه من غيره، وتدل عليه لمن أراد أن يقصده، وكانت علامته ريشة نعامةٍ حمراء، أثبتها على صدره.

وهنا خرج بين صفوف قريش الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلًا شرسًا، سيء الخلق، فقال: أعاهد اللات والعزى، لأشربن من حوض المسلمين، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فبرز له حمزة، وضربه ضربة أطارت ساقه، فوقع على ظهر الأرض، والدماء تشخب منه، ثم جعل يحبو نحو الحوض؛ ليبر بيمينه، فأجهز عليه حمزة قبل أن ينال مبتغاه.

ثم خرج من بعده عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة، فلما فصلوا عن الصف، دعوا إلى المبارزة، فأسرع إليهم في لمحة الطرف ثلاثة من شباب الأنصار، كأعواد الرماح فقال لهم عتبة: من أنتم فقالوا: جماعة من الأنصار، فقال: ارجعوا ما لنا بكم حاجة، ثم نادوا: يا محمد، أخرج لنا الأكفاء من بني قومنا، فقال ﷺ: قمْ يا عبيدة بن الحارث، وقمْ يا حمزة بن عبد المطلب، وقمْ يا علي بن أبي طالب، فقال عتبة: الآن، نعم أكفاء كرام، فقتل حمزة شيبة بن ربيعة، وقتل علي الوليد بن عتبة، وقتل عبيدة، وعتبة بعضهم ببعضٍ، وأبلى حمزة أعظم البلاء في هذا اليوم.

ولما كانت معركة أُحد شهدها حمزة وهو صائم، وكان يقاتل يومئذٍ بين يدي النبي ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله حمزة، ولكن يد الغدر نالته على يد وحشي، فسقط شهيدًا، ودُفن عند جبل أُحد في مكانه، وحزن عليه النبي ﷺ حزنًا شديدًا، ولما جاء الخبر لزوجه سلمى بنت عميس، كانت من أشد الناس عليه حزنًا، وصبرت صبرًا جميلًا، واحتسبته عند الله -تعالى-.

وبعد انقضاء عدتها تزوجها الصحابي الجليل شداد بن الهاد الليثي ﷺ فولدت له عبد الله بن شداد، وكان فقيهًا محدثًا من أعظم الفقهاء في تاريخ الإسلام، وعاشت سلمى في رحاب النبي؛ تربى ابنها عبد الله بن شداد، وابنتها عمارة بنت حمزة على المنهج النبوي القويم، فكان لهم باع عظيمٌ في الفقه والحديث ومجالس العلم.

تلك شذرات عبقة من حياة الصحابية الصابرة: سلمى بنت عميس ﷺ التي سكت التاريخ عنها، فلَم يحدثنا عن كثيرٍ من أخبارها وفضائله؛ حتى تاريخ موتها لم يحدثنا

عنه بشيء، ولكنه ظل يذكرنا دائمًا بالأخوات المؤمنات على مر العصور والأزمان، وهُنَّ: ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ وأم الفضل بنت الحارث امرأة العباس، وأسماء بنت عميس: امرأة جعفر بن أبي طالب، و ضيفتنا سلمى بنت عميس رضي الله عنهن.

الطبقات الكبرى-لسيرة الحلبية-دلائل النبوة-صحيح السيرة النبوية-نساء في زمن النبوة-المعارف لابن قتيبة-صفة الصفوة-حياة الصحابة-السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية-مجمع الزوائد ومنع الفوائد-در السحابة في مناقب القرابة والصحابة-نسب قريش-إنارة الدجي في مغازي خير الورى.

***

# نجيبة قريش الكريمة

حديثنا في هذه الصفحات عن امرأة سارعت إلى ساحة العز والمغفرة قبل دخول النبي ﷺ الدار الأرقمية المباركة، وأثرت عنها مواقف كريمةٌ مع رسول الله ﷺ ومع كبار الصحابة، وأبنائهم وأعيانهم، ولها في ذلك قصصٌ نافعةٌ لبنات حوَاء، ولكل محبي هذا الدين الحنيف، نحن على موعد مع زهرة فواحة غالية، ملأ عبيرها الكون، ونصعت سيرتها على صفحات التاريخ، فكانت سراجًا وهاجًا على الدرب لكل مسلمة تريد أن تعرف كيف تثبت على دينها وعقيدتها، إننا على موعد مع أسماء بنت عميس بن معد الخثعمية ﵂ تِلك الصحابية التي تزوجت ثلاثة رجالٍ من أهل الجنة، وكانت مثالًا عاليًا للمؤمنة التقية.

لما أسلم أبو بكر الصديق ﵁ علم أن الإسلام أمانة عظيمة، فخرج من عند النبي ﷺ داعيًا إلى الله، يدعو الناس جميعًا إلى جنة الرحمن، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكان من جُملة من أسلموا على يديه جعفر بن أبي طالب، وزوجه أسماء بنت عميس، وبهذا فقد حازت نعمة السبق إلى الإسلام، التي لا تعدلها نعمة في هذا الكون، وعاشت ﵂ مع زوجها جعفر في رحاب الإيمان، فقد كان زوجها يجلس مع الحبيب ﷺ يتعلم على يديه الخير كله، ثم يرجع إليها؛ ليعلمها.

وكان المسلمون يومئذٍ قلة، يعدون على الأصابع، وكانوا يتعرضون ليلًا ونهارًا إلى أشد أنواع الأذى، من سفهاء قريش وساداتها، وحين أمعَن فجار قريش ومجرومهم في إيذاء المسلمين والمسلمات، أشار عليهم الحبيب ﷺ بالهجرة إلى بلاد الحبشة، وكانت أسماء من بين ثماني عشرة امرأة تركنَ الديار، وهاجرنَ إلى أرض الحبشة مع ذويهنَّ، وكان ذلك في رجب من السنة الخامسة من البعثة النبوية.

ثم عادوا منها في شوال من السنة نفسها، لما بلغهم أن أهل مكة قد أسلموا، ولكن الخبر لم يكن صحيحًا؛ فقد وجدوا أهل مكة أشد شراسة من ذي قبل؛ فهاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة ومعهم بعض مَن هاجر أولًا منهم: جعفر وأسماء.

وكان لجعفر جهدٌ مشكورٌ في إقناع النجاشي ملك الحبشة، ومن حوله من الرهبان بالإسلام؛ فقد كلمهم بالحجة والبرهان عن الدين الذي جاء به محمد ﷺ وعرضه عليه عرضًا موجزًا بليغًا في أدبٍ جم؛ فقبل النجاشي دعوته، فأسلم، وأسلم معه من الرهبان عدد كثير، وأسلم من الأحباش عدد غير يسير.

عاش المسلمون في هذه الأرض الطيبة، وفي كنف ملكها آمنين، ينشرون الإسلام في كل مكان ذهبوا إليه بحرية تامة، حتى أذن لهم الرسول ﷺ بالعودة في السنة السابعة للهجرة، فعادوا إلى المدينة طيبين راشدين، فاستقبلهم النبي ﷺ بشوق وفرح، واستقبلهم المسلمون بما استقبلهم به النبي ﷺ وكانت فرحة النبي ﷺ عظيمة بقدوم ابن عمه: جعفر بن أبي طالب بعد غياب عشر سنين، فقد قبله بين عينيه وقال: ما أدري بأيهما أنا أفرح، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟

وكان عمر بن الخطاب ﷺ من أشد المسلمين فرحًا بالعائدين؛ لأن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت من المهاجرات، فلما دخل عمر على ابنته: أم المؤمنين حفصة كانت أسماء بنت عميس عندها، فقال: من هذه؟ فقالت حفصة: هذه أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم، فقال عمر: يا حبشية، سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلَّا، والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله ورسوله، وايم والله لا أطعمنَّ طاعمًا، ولا أشربنَّ شرابًا؛ حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ.

فلما جاءت المسجد قالت: يا رسول الله، إن عمر قال كذا وكذا، قال: فما قلت له؟ قالت: كذا وكذا، فقال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم

أهل السفينة هجرتان.

مكثت أسماء مع زوجها وأولادها في المدينة النبوية تنعم بجوار النبوي، وبالصحبة الشريفة، وأخذت تهتم بتربية أولادها، وتقتبس كثيرًا من الأخلاق الفاضلة: كالسخاء، والجود، والوفاء، وتغرسه في نفوس أبنائها، فقد كان زوجها جعفر من أسخى الصحابة، حتى لقب بالجواد، وكان أبو هريرة وأصحابه يدعون جعفر أبا المساكين؛ لكثرة جوده عليهم، فقد أحب المساكين، ويجلس إليهم، ويدعوهم إلى منزلهم، ويحدثهم ويحدثونه.

لَم ينعم الزوجان طويلًا بفرحة الرجوع إلى الأهل، واللحاق برسول الله ﷺ سوى عامٍ، وبضعة أشهر، فقد اعتمر رسول الله ﷺ وصحابته، وفي الطريق سمع جعفر من إخوانه -الذين خاضوا مع النبي ﷺ غزوة بدر، وأُحد، والأحزاب، وغيرهم من المشاهد- كثيرًا، مما جعله يتلهف شوقًا للجهاد في سبيل الله، وللفوز بالشهادة.

ولم يطل انتظاره؛ فقد بعث النبي ﷺ جيشًا إلى مؤتة في جمادى الأولى السنة الثمانية من الهجرة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، ولما دارت رحى المعركة، واشتد وطيسها: استُشهد زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، وقد انسحب خالد بن الوليد بالجيش؛ حتى لا يُباد.

جاء النبي ﷺ إلى دار أسماء بنت عميس رضي الله عنها وأخبرها باستشهاد جعفر؛ فبكت كما بكى غيرها، فقال ﷺ: على مثل جعفر فلتبكِ الباكية، ثم قال لها: يا أسماء، لا تقولي هجرًا، ولا تضربي صدرًا، فسمعت وأطاعت؛ رضًا بقضاء الله وقدره، ثم قال لها: يا أسماء، ألَا أبشركِ؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: فإن الله جعل لجعفر جناحين؛ يطير بهما في الجنة، ففرحت وقالت: بأبي وأمي، فأعلم الناس بذلك يا رسول الله، ففعل.

صبرت أسماء على فقد زوجها الحبيب، وأخذت ترعى أولادها، وتنشئهم تنشئة

فاضلة، وتأدبهم بأدب الإسلام، وتعدهم للجهاد في سبيل الله، وظلت على عهدها عابدة صائمة قائمة لله، فلما انقضت عدتها، تزوجها شيخ الصحابة وسيدهم، وإمامهم، وصادقهم، وصديقهم: أبو بكر الصديق ﷺ ويا لها من مكرمة عظيمة! أن تتزوج أسماء بخير الرجال، بعد الأنبياء والمرسلين، وعاشت أسماء بجوار الصديق حياة طيبة مُباركة، كلها طاعة لله.

ولقد وولدت للصديق محمدًا، حين خرجت للحج مع النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة؛ فقد جاءها المخاض بذي الحليفة، وهو الميقات الذي يحرم أهل المدينة منه؛ فهم الصديق بردها إلى المدينة، واستأذن رسول الله ﷺ في ذلك فقال له: مُرها؛ فلتغتسل، ثم تُحرم، وتمر الأيام مسرعة، ويأتي اليوم الذي مات فيه المصطفى ﷺ فأظلمت الدنيا كلها بموته، فحزنت أسماء حزنًا شديدًا، كاد أن يمزق قلبها.

وقد عاشت أسماء مع الصديق في خلافته، التي لم تدم طويلًا؛ فقد بدأت في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، وانتهت في جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة، وشاهدت الأحداث الكبرى من جمع القرآن الكريم، وحرب المرتدين، ورأت كيف زاد الصديق عن حمى الإسلام، وحرمة المسلمين، وكيف وضع أساس الدولة الإسلامية، وكيف أرسل البعوث إلى الشام والعراق، بعد أن قضى على المرتدين في الجزيرة، كل ذلك في سنتين وثلاثة أشهر تقريبًا.

وكانت أسماء نعم العون لزوجها الصديق! تشد أزره، وتحيطه برعايتها، وتسانده بحبها، حتى اقترب سن الصديق من سن الرسول ﷺ عند وفاته، وهي الثالثة والستون؛ فمرض بالحمى لمدة خمسة عشر يومًا، عانى خلالها من الضعف والوهن، وأحس بدنو الأجل؛ فعهد إلى عمر بالخلافة بعد أن استشار خيرة الصحابة.

وفي يوم الاثنين السابع من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة لقي الصديق ربه، عشية هذا اليوم، وقد أوصى أسماء أن تغسله بنفسها، فإن عجزت عن ذلك استعانت بابنه عبد الرحمن، وكانت يوم وفاته صائمة؛ فعزم عليها أن تفطر؛ لتقوى على ما

أوصاها به؛ فظلت صائمة حتى دنت الشمس من الغروب؛ فدعت بماء فشربت قبل أن تغيب الشمس؛ برًا بقسم زوجها وقالت: والله لا أتبعه اليوم حنثًا -أي: لا أجعله يحنث في يمينه؛ فيسوؤه ذلك، فما أعظمه من وفاء وبر-.

وظلت أسماء بنت عميس ﵂ تعاني من ألم الحزن على فقد أكمل المؤمنين إيمانًا بعد خير البرية ﷺ ولكن لم يعقها حزنها عن تأدية واجبها نحو أبنائها، وذوي رحمها، ونحو سائر المسلمين والمسلمات؛ فلما انقضت عدتها، تزوجها أشجع العرب، وأشدهم بأسًا في الحرب، وأصدقهم حديثًا، وأوسعهم علمًا، وأعظمهم نسبًا، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ: علي بن أبي طالب ﵁ فعاشت معه قريرة العين؛ لا تجد منه إلا خيرًا؛ فقد كفلها وكفل ولدها، وأحسن إليها الإحسان كله، وعلَّمها ما علمه الله، وكانت ﵂ تحبه، وتجلّه كحبها لزوجيها السابقين: جعفر وأبي بكر.

وظلت أسماء بنت عميس وفية لزوجها، تطيعه إذا أمر، وتسره إذا نظر، وتحفظه في ماله، وولده، وعرضه، وعاشت معه أيام الفتنة الكبرى لحظة بلحظة، ولم يلبث عليّ ﵁ أن لقي ربه ﷻ على يد أفاك أثيم، هو عبد الله بن ملجم؛ إذ ضربه على رأسه فكانت الشهادة، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان سنة أربعين.

وظلت أسماء ﵂ بقية حياتها طائعة لربها، مناصرة لدينها، تواصل رعاية أبنائها، وتسهم ما استطاعت مع المسلمين في نصرة الحق، وإعلاء كلمة الله، ولا تتواني لحظة عن تقديم أية تضحية يدعوها إليها دينها، وكيف لا! وهي صاحبة الهجرتين، وزوجة الشهداء، والسابقة إلى الإسلام، والصابرة على الشدائد والمكاره، وبعد شهور قليلة من موت علي بن أبي طالب تنام أسماء على فراش الموت؛ لتلقى ربها ﷻ بعد عمر حافل بالمكارم ومآثرها.

مختصر تاريخ دمشق-الدر المنثور-الفرج بعد الشدة-تهذيب الكمال في أسماء الرجال-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير-الوافي بالوفيات-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم-البداية والنهاية-البصائر والذخائر-أنساب الأشراف-الكامل في

التاريخ-صفة الصفوة-مسند الإمام أحمد-سنن أبي داود-تهذيب التهذيب-تهذيب الأسماء واللغات-تهذيب مستمر الأوهام.

***

# الفارسة الفدائية

لم يكن الجهاد في الإسلام مقصورًا على الرجال، ولكنه كان فريضة على الرجال والنساء معًا، إذا استدعى الأمر ذلك، وحتمت الضرورة خوضهنَّ المعارك، أو وقوفهنَّ خلف من يجاهد؛ فنصرة الإسلام ضرورة تتطلب حشد الطاقات كلها، في المعارك الحاسمة التي يخوضها الأبطال في عزة وإباء، من أجل حفظ الدين، وحماية الأنفس، وصيانة الأعراض والحرمات، وحديثنا في هذه الورقات عن امرأة من أشجع النساء، كان لها في البطولة شأنٌ عظيمٌ؛ قد أظهرت في الحرب شجاعة نادرة، أذهلت قواد الحرب، وفرسان القتال، وأضحت فيها مضرب الأمثال، إنها المجاهدة: خولة بنت الأزور ﷺ.

كانت خولة بنت الأزور امرأة ليست ككل النساء، فلقد تميزت عنهنَّ بصفات كثيرة ومواصفات أكثر، فلقد تربت في البادية العربية مع أبناء قبيلتها بني أسد، ولازمت أخاها ضرار البطل المقدام في كل حروبه فكأنا دومًا معًا، وشاء الله أن تكون وأخوها ضرارًا مع الكتائب الطلائعية، المتقدمة للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق والدين، فشاركت بكل قوة وبسالة نادرة في المعارك الطاحنة، فكانت بذلك من أشجع النساء على مر العصور في الكَر والفر.

كانت خولة تشارك أخاها ضرار بن الأزور ﷺ في كثير من المعارك الحربية، التي خاضها على جبهة العراق، أو الشام، وكانت تشاركه آلامه وآماله، وتشير عليه؛ فقد كانت خبيرة بفنون الحرب، ومواطن الجهاد؛ ومخادعة العدو، وكانت بارعة في ركوب الخيل، واستعمال السلاح، وكانت تتمنى من أعماق قلبها أن تشارك الرجال في القتال، وتكره أن تكون قعيدة البيت في وقت، يحتاجها الميدان فيه.

وقد أسرت لأخيها كثيرًا بما يجيش في صدرها، من الرغبة الملحة في أن تكون

مساهمة بجهد في مجاهدة العدو، بسيفها وقوسها، وبكل ما أوتيت من قوة وشجاعة، ولكنه صارحها بخوفه الشديد عليها مما تجره الحرب على الأبطال الصناديد من الرجال فكيف بالنساء؟ وهو يعلم علم اليقين أن النساء شقائق الرجال في كل ميدان؛ فهنَّ في حاجة إليهم، وهم في حاجة إليهنَّ في الميادين جميعها.

لقد كانت ﵂ تبث شكواها إلى الله ﷻ حين تشتد على المسلمين ويلات الحروب، وتدعو لهم بالنصر على عدوهم بدعاء بليغ، ولقد أخذت خولة مكانها؛ لتقوم على خدمة المجاهدين، وهي في الوقت نفسه ترقب سير المعارك بعين الخبيرة المجربة؛ فلم يكن يرهبها التراجع، أو يستخفها التقدم، وإنما كانت دائمًا ثابتة الجنان، قوية القلب، إلى جانب أنها كانت كثيرة الحركة، دائمة التنقل، تسرع لري الظامئ، وتواسي من يحتضر، وتسعف المجروح والمصاب، ثم تحمل المئونة، والسلاح إلى من يحتاج إليهم.

وقد شهدت خولة فتح مدينة حمص وفي إحدى المعارك مع الروم البيزنطيين، التي شاء الله أن تقع هي وكثيرات من المجاهدات في أسر الروم، ووضعن تحت الحراسة، حتى تنتهي الموقعة، وبعدها يستولى الأعداء على السبايا والأسيرات، إذ يكون لهنَّ معهم شأن الظافرين.

نظرت خولة حولها في ثورة مكبوتة، وقد ضاقت بها الدنيا عندما رأت أنها في بداية جهادها تقع في أسر الروم، وكرهت أن تستلم لهذا الإحساس الذي اعتراها، ولكنها امرأة عاجزة، والتسليم بالأمر الواقع يعني أنها ومن معها من المؤمنات سيكنَّ سبايا للروم، يحملنَ العار حيثما حللنَ، ويكنَّ وصمة على جبين الجهاد والمجاهدين والمجاهدات.

واستعرضت الأمر على شتى الوجوه، فآثرت الموت على أن يمسها أحد من هؤلاء الأعداء، فكان لا بد لها أن تفعل شيئًا؛ فجمعت صويحباتها، وصارحتهنَّ بما دار في خلدها قائلة لهنَّ: يا بنت الإسلام، أترَضين أن تكنَّ لهؤلاء الأعداء، ويكون أولادكنَّ عبيدًا لهم؟!

وجدت خولة ﵂ من بينهنَّ من تنصرها، وتمهد معها للمغامرة التي أرادتها في الوقت الذي كانت فيه المعركة الحاسمة دائرة على أشدها بين الفريقين، سنحت الفرصة الملائمة التي انتظرتها خولة عندما ذهب أكثر المحاربين الروم إلى ساحة العراك، وضعفت الحراسة المفروضة عليهن؛ فأوحى إليها هذا الجو أن تقوم بعمل حاسم سريع، فقالت:

يا بنات العم، إن الريح مواتية، وإن فرصة الخلاص لتبدو لنا، فها قد حان الوقت، وإن الموت لأشرف لنا من فضيحة تلحق بنا حتى آخر الزمن، علينا أن نحمل حملة صادقة تذهل العدو؛ فننجونَّ أو نستشهدنَّ في سبيل الله، خذنَ أعمدة الخيام والأوتاد في أيديكنَّ، ولنحملنَّ معًا على هؤلاء الحراس، ولنتماسكنَّ، ولنتكاتفنَّ، ولا تكنَّ بيننا ثغرة ينفذ إلينا منها أحد، اشددن معي، والله معنا، والله أكبر.

وعمل هذا الوعظ الشديد عمله في أنفس المجاهدات؛ فاقتلعن الأعمدة والأوتاد، وهجمنَ في قوة وعنف على حراسهنَّ، اللاتي راعهنَّ هذا الهجوم المفاجئ، وأسقط في أيديهن؛ فولّيْن مدبرات أمام هذه الشجاعة النادرة، وعُدْن جميعًا إلى معسكر الإسلام بعد أن تخلصنَ من الأسر، وقد محونَ عاره عن أنفسهن، وارتفعت حناجرهن تردد في إيمان عميق هتافهن الصادق: الله أكبر، الله أكبر.

ولما عادت خولة إلى ساحة القتال جاءت الأنباء إليها بأسر أخيها ضرار، فزلزل الخبر قلبها زلزالًا شديدًا، ومادت الأرض من تحت أقدامها، وانسلت خولة من بين أخواتها، وامتطت جوادًا بعد أن لبست ملابس الفرسان، وتلثمت بلثامها حتى لا يعرفها أحد، ونزلت كالصاعقة في صفوف الروم تقاتل ميمنة، وميسرة، وتضرب بسيفها البتار أعناق الرجال؛ فارتدت جحافل الروم عن ساحتها؛ فزعًا مما أصابهم من هذا الفارس الملثم، وأخذ الرعب من قلوبهم مأخذه.

وبينما العدو يعاني من هذا الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم، تقدم المسلمون، واندفعوا إلى القتال لا يبالون، أَسقطُوا على الموت أم سقطَ الموت عليهم؟ وكان

خالد بن الوليد ينظر إلى هذا الفارس المُلثم نظرة إعجاب وإكبار، وهو لا يعرف من هو؟ فسأل عنه فلم يجد أحدًا يعرفه، فازدادت دهشته، فألح في السؤال، فلم يجبه أحد، فقال في نفسه: بعد أن تنتهي المعركة سنعرف من هو؟

وقد أمر خالد رجاله بالانطلاق خلف هذا الفارس الملثم، والوقوف بجانبه؛ لحمايته من غدر الروم، وبعد جهاد مشكور، وصل الفارس المغوار حيثُ يوجد خالد، وقد تخضب رداؤه بدماء المعركة الطاحنة، فصاح به خالدٌ: لله درك من فارس! أبليت أحسن البلاء، اكشف لنا عن لثامك؛ لنعرف من تكون، فانصرف الفارس دون أن يحسر لثامه، أو يقول كلمة يكشف بها عن نفسه، فعاد خالدٌ يسأله في لهفة: من أنت يا أخ الإسلام؟ لقد شغلت قلوب الناس بشجاعتك فمَن تكون؟

وقف الفارس، وبقي على صمته فترة، ثم تكلم فقال: لقد أعرضت عنك أيها الأمير حياءً منك، فاغفر لي صمتي، وإصراري على السكوت، وكان طبيعيًا أن يسأل خالد في لهفة: مَن أنت إذن؟ ودهشوا جميعًا عندما سمعوا الفارس الغامض يقول: أنا خولة أخت ضرار، سمعت بوقوع أخي في الأسر؛ فركبت؛ لأفك أسره.

ولما استأنف القتال دارت رحى حرب ضروس، وخاضت خولة غمارها مع المجاهدين، واستطاعوا أن يحققوا النصر على الروم دون أن يصلوا إلى ضرار، وبعد أن غابت الشمس، وخيم الليل بظلامه، رجع كل فريق إلى معسكره، وراحت خولة تجول خلال الميدان؛ تسأل عن أخيها، وحرك سؤالها حمية خالد، حتى فكر أن يعاود القتال في هذا الظلام الدامس، إلا أن فرقة من جيش الروم وقعت في أسر المسلمين، فسألهم خالد عن ضرار، قالوا: إنه في طريقه إلى حِمص، بصحبة مائة مقاتل من أشجع فرسان الروم.

استدعى خالد صاحبه رافع بن عميرة، وقال له: إنك خبير بمسالك هذه البلاد، وتعرف أية طريق يسلكه القوم بضرار، فخذ معك مائة فارس، وألحق بهم، ولما علمت خولة بالأمر طلبت من خالد أن يأذن لها الخروج مع رافع ورجاله؛ فتردد خالد، ثم أذن

لها، بعد أن أوصى بها جنده، خرج رافع برجاله حتى وصلوا إلى قرية تُسمى سُليمة، وقد اجتازوا إليها دروبًا مجهولة، فسألوا أهلها عن جند الروم في صحبتهم أسير عربي؛ فأكدَّ القوم أنهم لم يمروا بهم.

وما هي إلا ساعات حتى أشرف عليهم جنود الروم ومعهم ضرار؛ فحمل رافع برجاله، وبرز بين الصفوف الفارس الملثم في ثيابه السوداء، وراح يطيح برؤوس الروم، ويلقي الرعب في القلوب، حتى انتهت المعركة بقتل مقاتلين الروم المائة جميعًا، وأصبح ضرار الآن حرًا، ووقف ضرار ينظر في إعجاب إلى هذا الفارس المثلم، الذي فعل بالروم الأعاجيب، وتفوق على أقرانه في الشجاعة، وقبل أن يفيق من دهشته قفز الفارس المثلم نحوه، ووقف بين يديه، فقال: معجبًا: خولة، أهذه أنتِ؟ قالت: نعم.

لقد ضربت خولة بنت الأزور ﷺ مثلًا رائعًا في الجهاد في سبيل الله -تعالى- والتضحية من أجل هذا الدين، دفاعًا عن الحق الذي اتبعته، وطمعًا في نيل الشهادة، فلقد أثبتت ﷺ للعالم أجمع دور النساء العظيم في تغيير مجرى التاريخ، والتأثير في الأوقات الحاسمة، وكانت دائمًا في ساحات الوغى يشهد لها بالمواقف العظيمة الخالدة، وبطولتها النادرة.

فتوح الشام-الأعلام للزركلي-معجم البلدان-مؤمنات لهن عند الله-سيف الله المسلول-العبر وديوان المبتدأ والخبر.

***

# الأم المثالية

يزخر التاريخ الإسلامي بنماذج مشرفة وأمهات عظيمات؛ استطعنَ أن يضعنَ أثرهنَّ، ويصنعنَ رجالًا حقًا، هؤلاء الأمهات كان لهنَّ دورٌ فعال في بناء رجال، وشخصيات عظيمة حفرت أسماءها عبر العصور، وتركت علامات فارقة في مجالات مختلفة. وحديثنا في هذه الصفحات عن امرأة ضربت المثل الجيد، والقدوة الحسنة في التربية والتنشئة كما يجب أن تكون، فهي لم تكن أمًا صنعت رجلاً فحسب؛ بل صنعت عالمًا جليلًا، لمَّا يعرف التاريخ له مثيلًا، إنها أم ربيعة الرأي ﷺ فتعالوا بنا؛ لنستمتع بهذه القصة الرائع، لهذه السيدة العظيمة.

بعد فتح المسلمين منطقة سجستان عاد الفتى "فروخ" إلى المدينة المنورة، بعد موت مولاه، وسيده الصحابي الجليل: الربيع بن زياد ﷺ وقد عزم على الزواج، فاتبع دارًا من دور المدينة، واختار امرأة راجحة العقل، كاملة الفضل، صحيحة الدين، لقي فروخ في صحبة زوجته هذه من هناء العيش، وطيب العشرة، ونضارة الحياة فوق ما كان يرجو ويأمل.

ولكن تلك الدار العامرة على كل ما توافر لها من المزايا، وتلك الزوجة الصالحة على ما حباها الله من كريم الشمائل؛ وجليل الخصائل، لم يستطيعا أن يتغلبا على حنين الفارس المؤمن إلى خوض المعارك، وولعه باستئناف الجهاد في سبيل الله، فكان كلما ترددت في المدينة أخبار انتصارات الجيوش الإسلامية الغازية في سبيل الله، تأججت أشواقه إلى الجهاد، واشتد حنينه إلى الاستشهاد.

وذات يومٍ عاد إلى بيته، وقد عقد العزم على الانضواء تحت لواء راية المجاهدين، وأعلن عزمه هذا لزوجته، فقالت له: يا أبا عبد الرحمن، لمن تتركني، وتترك هذا الجنين الذي أحمله بين جوانحي؟ فأنت رجل غريب عن المدينة، لا أهل لك فيها،

ولا عشيرة، فقال: أَترُككِ لرب العزة -سبحانه- ثم إني تركت لكِ ثلاثين ألف دينارٍ؛ فصونيها، وأنفقي منها على نفسكِ، ووليدكِ بالمعروف؛ حتى أعود، أو يرزقني ربي الشهادة التي أتمناها، ثم ودَّعها، ومضى إلى غايته.

وضعت السيدة الرزان حملها بعد رحيل زوجها ببضعة أشهر، فإذا هو غلام، ففرحت به فرحًا عظيمًا كاد ينسيها فراق أبيه، وأطلقت عليه ربيعة، بدت على الغلام الصغير علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، وظهرت أمارات الذكاء في أفعاله وأقواله، فأسلمته أمه إلى المعلمين، وأوصتهم بأن يحسنوا تعليمه، واستدعت له المؤدبين، وحضتهم على أن يحكموا تأديبه.

فما لبث كثيرًا حتى أتقن الكتابة والقراءة، ثم حفظ كتاب الله، وقد أغدقت أم ربيعة على معلمي ولدها ومؤدبيه المال والجوائز إغداقًا، فكانت كلما رأته يزداد علمًا؛ تزيدهم برًا وإكرامًا، وكانت تترقب عودة أبيه الغائب، وتجتهد في أن تجعله قرة عين له، لكن فروخًا طالت غيبته، وظنت أنه نال الشهادة التي تمناها، فاحتسبته عند الله.

مضى ربيعة في الطريق التي اختارتها أمه له، غير وانٍ ولا مقصر، وأقبل على حلقات العلم التي كان يزخر بها مسجد المدينة، كما يقبل الظمأ على الموارد العذاب، ولزم البقية الباقية من الصحابة الكرام، وعلي رأسهم خادم النبي: أنس بن مالك ﷺ وغيره من علماء العصر، حتى أصبح أكثر أهل المدينة علمًا.

وذات عشية جاء إلى المدينة فروخ بعد غياب ثلاثين عامًا، وقد وجد نفسه أمام داره، فأعجلته الفرحة عن الاستئذان على أهلها، ودخل من الباب، وأوغل في صحن الدار، فسمع ابنه ربيعة بصوت أحد في الدار، فرأى رجلًا متوحشًا سيفه، متقلدًا رمحه، يقتحم عليه في الليل داره.

فنزل إليه ربيعة، وهو لا يعرفه، وقال له: أَتستُر بجنح الليل يا عدو الله، وتقتحم منزلي، وتهجم على حريمي؟ واندفع نحوه، وتواثب كلا الرجلين على صاحبه، وعلت جلبتهما، وارتفع ضجيجهما، وتدفق الجيران على البيت من كل صوب،

فأحاطوا بفروخ، وأعانوا جارهم ربيعة عليه، فأمسك به وقال: واللهِ لا أطلقك يا عدو الله، إلا عند الولي.

فقال فروخ: ما أنا بعدو الله، ولم ارتكب ذنبًا، فهذا هو بيتي، وجدت بابه مفتوحًا، فدخلته، ثم التفت إلى الناس، وقال: يا قوم، اسمعوا مني، أنا فروخ، وهذا بيتي شريته بمالي لزوجتي.

لم يبقَ في الجيران أحد يعرف فروخ الذي غدا منذ ثلاثين عامًا مجاهدًا في سبيل ربه؟ وكانت والدة صاحب الدار نائمة، فاستيقظت على الضجيج، وأطلت من نافذة عليتها؛ فرأت زوجها فروخًا فقالت: دعه يا ربيعة؛ إنه أبوك، فانصرفوا عنه يا قوم، بارك ربي فيكم، فما كادت كلماتها تلامس الآذان حتى أقبل فروخ على ربيعة، وجعل يضمه ويعانقه.

جلس فروخ إلى زوجته، وطفق يحدثها عن أحواله، ويكشف لها عن أسباب انقطاع أخباره، ولكنها كانت في شغلٍ شاغلٍ عن كثير مما يقول، فلقد نغَّصَ عليها فرحتها بلقائه، وخوفها من غضبته على إضاعة كل ما أودعه لديها من مال على ربيعة.

ولما أذَّن المؤذن لصلاة الفجر مضى فروخ مسرعًا نحو الباب، وهو يقول: أين ربيعة؟ فقالوا: سبقك إلى المسجد، بلغ فروخ المسجد وصلَّي، ولما هم بمغادرة المسجد؛ وجد باحته قد غصت على رحبها بمجلس من مجالس العلم، لم يشهد له نظيرٌ من قبل، ورأى الناس قد تحلقوا حول شيخ المجلس حلقة إثر حلقة، حتى لم يتركوا في الساحة موطئًا لقدم، وحاول فروخ أن يتبين صورة الشيخ، فلم يفلح لموقعه منه، وبعده عنه.

وما هو إلا قليل حتى ختم الشيخ مجلسه ونهض واقفًا، فهب الناس نحوه، وتزاحموا عليه، وأحاطوا به، واندفعوا وراءه إلى خارج المسجد، هنا التفت فروخ إلى رجلٍ كان يجلس بجانبه وقال: قل لي مَن الشيخ؟ فقال الرجل متعجبًا: أوَ لستَ من أهل المدينة؟ قال فروخ: بلي، فقال الرجل: وهل في المدينة رجلٌ واحدٌ لا يعرف الشيخ؟ فقال

فروخ: اعذرني إذا كنت لا أعرفه، فلقد أمضيت نحو ثلاثين عامًا بعيدًا عن المدينة.

فقال الرجل: هذا سيد فقهاء المدينة، وعلَم من أعلام المسلمين، ومحدث المدينة وإمامها، ثم أتبع الرجل يقول: وإن مجلس يضم كما رأيت: مالك بن أنس، وأبا حنيفة النعمان، ويحيى بن سعيد، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن الأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم من علماء المسلمين.

فقال فروخ: ولكنك لم تذكر لي اسمه، فقال الرجل: إنه ربيعة الرأي، فقال فروخ: ربيعة الرأي! قال الرجل: إن اسمه ربيعة، لكن علماء المدينة دعوه "ربيعة الرأي"؛ لأنهم كانوا إذا لم يجدوا لقضية نصًا في كتاب الله، أو حديث رسول الله ﷺ لجؤوا إليه، فيجتهد في الأمر، وإن اسم أبيه فروخ، عند ذلك تحدرت من عيني فروخ دمعتان كبيرتان، لم يعرف لهما الرجل سببًا.

ومضي فروخ إلى بيته، فلما رأته أم ربيعة، والدموع تملأ عينيه قالت: ما بك يا أبا ربيعة؟ قال: ما بي إلا الخير، لقد رأيت ولدنا ربيعة في مقام من العلم، والشرف، والمجد، ما رأيته لأحدٍ من قبل.

فاغتنمت أم ربيعة الفرصة وقالت: أيُهما أحب إليك، ثلاثون ألف دينارٍ أم هذا الذي بلغه ولدك من العلم؟ فقال: بل وربِّ الكعبة هذا أحب إليَّ، وآثر عندي من مال الدنيا كله، فقالت: لقد أنفقت ما تركته عندي عليه، فهل طابت نفسك بما فعلت؟ فقال: وربِّ فروخ، نَعم، وجزيتِ عني، وعنه، وعن المسلمين خير الجزاء.

تذكرة الحفاظ-تاريخ بغداد-الوافي بالوفيات-المحبر لابن حبيب-وفيات الأعيان-تاريخ الطبري-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء-صفة الصفوة-ميزان الاعتدال-شذرات الذهب في أخبار من ذهب-تاريخ مدينة دمشق-صور من حياة التابعين-سير أعلام النبلاء-بغية الطلب في أخبار حلب-تاريخ ابن أبي زرعة-تهذيب مستمر الأهاوم.

***